منبر الإسلام

دينية . اجتماعية . ثقافية

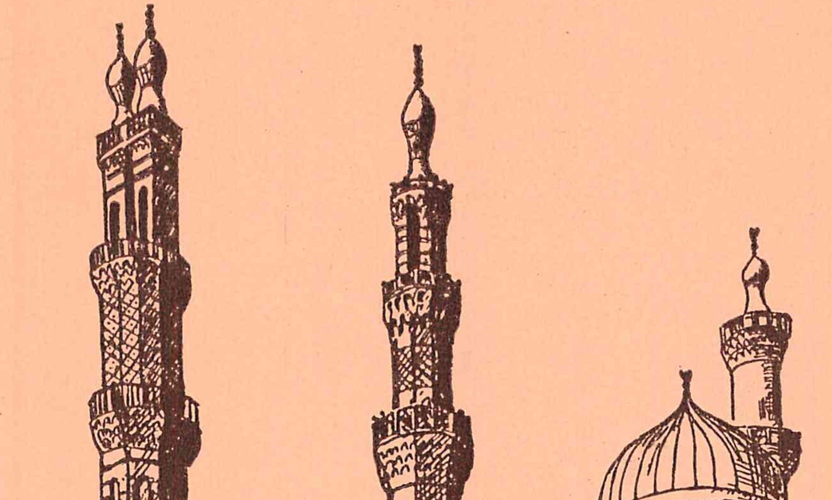

العدد التاسع (غرة رمضان سنة ١٣٧٥ هـ — ١٢ إبريل سنة ١٩٥٦ م) السنة الثالثة عشرة

العدد التاسع
بسم الله الرحمن الرحيم
السنة الثالثة عشرة

المدير ورئيس التحرير
البهى الخولى

الإدارة
بوزارة الأوقاف
تليفون ٢٠١٢٠

منبر الإسلام
مجلة المساجد
دينية ثقافية
تصدر مع غرة كل شهر عربى

الاشتراكات
لمدة سنة
قرش
٤٨ داخل القطر
٦٠ خارج القطر
للطلبة والعمال
بنصف القيمة

غرة رمضان سنة ١٣٧٥ هـ
١٢ من إبريل سنة ١٩٥٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

حديث الصوم :

إنى صائم ..

« الحديث الدينى الذى أذاعه فضيلة السيد
أحمد حسن الباقورى وزير الأوقاف »

السلام عليكم ورحمة الله

لعله من الخير ونحن نستقبل رمضان ونقضى فريضة صومه أن نعرف حقيقة هذا الصوم ونتعرف على حكمته ، فإن كثيراً منا يؤدون هذه الفريضة فيصومون رمضان متابعين لمن حولهم مقلدين غيرهم آخذين بما جرى عليه آباؤهم وأجدادهم من قبل ، وقلَّ منا من يفكر فى حقيقة الصوم ، وإن فكر فلا يمتد تفكيره إلى أبعد من أن الصوم هو جوع وعطش ، وإن بَعُد به تفكيره فالصوم عنده رياضة غايتها تهذيب النفس وأخذها بما يعودها الصبر ، واحتمال المشقة ، والإحساس بلذعة الحرمان .. إلى غير ذلك مما يعرفه المتصلون بالدراسات الفقهية .

ولكن الصوم — أيها السادة — شيء أعظم من هذا كله . . فليس الصوم جوعا وعطشا ، فما أكثر الجياع والعطشى فى دنيا الناس ! ! ولكنهم ليسوا صائمين لا عند أنفسهم ولا فى حقيقة الأمر . . لأنهم لم يعقدوا العزم على الجوع والعطش ، ولم يجيئوا إليه طائعين مختارين . . فقد يجوع الإنسان ويعطش لأنه مريض محكوم عليه بأن يمسك عن الطعام والشراب ، وقد يمتد به الجوع والعطش أياما وليالى ، ولكنه مع هذا ليس صائما . . وقد ينقطع المرء عن مواطن الطعام والشراب فى صحراء ، أو قفر ما ، وقد يموت جوعا ، أو يهلك عطشا ، ومع هذا فليس بصائم ، لأنه لم يقصد إلى الصوم ، ولم يجئ إليه عن رغبة واختيار .

ليس الصوم رياضة على احتمال الجوع والعطش والصبر عليهما ، فما أكثر المحترفين لمثل هذه الرياضات ! ! وما أكثر الذين يأخذون أنفسهم بأشق الرياضات وأقساها ليحصلوا من وراء ذلك على مناعة جسمية يقتدرون بها على خوارق الأعمال وركوب الأخطار التى يعجز عنها معظم الناس ! ومع ذلك فليس لهم من هذه الرياضات شيء تنتفع به النفس ، وينتعش به الروح .

فما الصوم إذن أيها المسلمون الصائمون ؟ ؟

الصوم فى شريعة الإسلام نية وعقد بين العبد وربه ، وهو أمام هذه النية ، وذلك العقد مطالب بالوفاء الذى يحقق النية ويصحح العقد ، وأن أى تفريط فيما صممت عليه النية وانتظمه العقد ، غدر بالله ، ونكث بعهده ، الذى يقول فيه سبحانه وتعالى : « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ، ويقول : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » .

فإذا دخل شهر الصوم ، وعقد المسلم النية على صيامه ، فقد جعل بينه وبين الله عهداً ، ووطن نفسه على الوفاء به ، وأعدها لهذه الرياضة الروحية التى تنتظم شهراً كاملا ، هى تلك الأيام المعدودات التى تشير إليها الآية الكريمة فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم .. لعلكم

تتقون . . أياما معدودات » ومحصَّل التقوى فى هذه الأيام المعدودات لا يكون بالجوع والعطش ، فإن الجوع والعطش المجردين من معنى الصوم من شأنهما أن يثيرا فى الإنسان كثيراً من دخائل الشر ، و يدفعاه دفعا إلى الإجرام ، وقد يحيلانه حيوانا ضاريا يستبد به سعارهما ، فينهش اللحم و يلغ فى الدم .

و إنما تجىء التقوى من هذا الإحساس الذى يملأ نفس الصائم حين تتحرك فى نفسه الشهوة إلى الطعام وهو عتيد لديه ، فيردها عنه ردا ، و يهتف بها « إنى صائم » ثم يمتد هذا الإحساس فى نفس المسلم الصائم فيلقى به كل شهوة تدور فى محيطها ، وكل منكر يطوف بها . . فلا يكذب لأنه صائم ، ولا يغتاب لأنه صائم ، ولا يسعى بنميمة . . لأنه صائم ، ولا يسب ، ولا يلغو ولا يرفث ، ولا يفسق . . لأنه صائم . . فهو أبدا مسلح بهذه النية محصن بهذا الإحساس ، مجهز بتلك القذيفة يصرع بها كل شهوة ، و يردى بها كل منكر . . « إنى صائم » .

ماذا يكون الصوم فى شريعة الإسلام غير هذا ؟ وأين يذهب به غير هذا المذهب الذى يجعل للصائم سلطانا على نفسه ، وسبيلا إلى بناء كيانه الخلقى ودعمه بالطيبات الصالحات من الأقوال والأفعال ؟ وأين موقع الحجة ودلالة الصدق فى قول الرسول الأمين « الصوم جنة » ؟ وأين هذه الجنة و ماجدواها إن لم يجدها الصائم كلما هممت به دواعى الشر وحاكت فى صدره دوافع الاثم ، ونَعَمْ « الصومُ جنة » فمن حقق معنى الصوم ، فقد ضمن لنفسه هذه الحصانة وأمسك منها بأوثق العرى .

ولن يتحقق معنى الصوم فى نفس الصائم إلا إذا صحبته نية خالصة . . . فإن النية هى التى تربط العمل بنفس الانسان ، وهى التى تجعل للعمل غاية يسعى المرء لها ويعمل فى ظلها ، وفى قول الرسول الكريم « إنما الأعمال بالنيات » توجيه سديد إلى أكمل المقاصد لإنجاح الأعمال العظيمة والغايات البعيدة ، فالحديث إنما يؤكد ماللنيات من آثار بعيدة المدى فى تحقيق الأعمال وتعليق نتائجها على ما يصحبها من نيات ، وكأنما يقول الحديث « إنما تصح الأعمال بالنيات » فالنية التى تصاحب الصوم شىء

له خطره ، وليست لفظاً مردداً ولا خاطراً عابراً ، وإنما هى عزيمة صادقة ، واستعداد كامل ، للدخول فى هذه العبادة ، فهى أشبه بتكبيرة الإحرام فى الصلاة يُسْلِمُ المصلى بعدها نفسه خالصة لله ، وينقطع بها عن الحياة وشواغل الحياة حتى يفرغ من صلاته ، كذلك حين ينوى المسلم الصوم ويعقد العزم عليه فإنما ذلك إيذان بالدخول فى تلك الفريضة ، ومتى دخل الصائم فى الصوم فقد وجب عليه أن يلتزم حدوده التى يشير إليها الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى قوله « إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل وإن امرؤ شاتمه أو قاتله فليقل إنى صائم . إنى صائم . و « إنى صائم » هنا إنما هى إحياء لتلك العزيمة الكامنة فى النفس وإعلان للنية المستقرة فى القلب يطرحها الصائم بينه وبين من يدخل عليه فى صومه بِرَفث أو فُسوق لتكون وازعا لهما معاً : الصائم لأنه صائم ، وغير الصائم لأنه فى مواجهة صائم من شأنه ألا يرفث وألا يفسق .

هكذا يقطع الصائمون شهر الصوم ، يوماً يوماً وليلة ليلة ، فهو شهر كامل متصل الأيام والليالى ، وليست ساعات الفطر فيه إلا منازل يتزود فيها الصائم بما يعينه على قطع المرحلة ، ويقويه على متابعة الصوم .

فى ظل هذا الإحساس يمكن أن يطمئن الصائم على صيامه ، وأن يطمع فى أن يحقق منه بعض حكمته السامية ، وفى ظل هذا الإحساس يمكن أن ينخلع الصائم عن كثير من مظاهر الضعف النفسى التى كثيراً ما تفسد على الصائمين صيامهم ، ولا يكون حظهم من الصوم إلا الجوع والعطش . . . . يقول الرسول الكريم : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

فلندع الطعام والشراب ، ولندع معهما قول الزور والعمل به . ولنلاحظ دائماً حين نصوم هذا العقد الموثّق بين ربنا وبيننا فذلك هو صيام الإسلام ، وتلك هى سبيل المسلمين فيه .

هداية القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه » .

روى الشيخان رضى الله عنهما أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنـة ، وغلقت أبواب النار ، وصـفدت الشياطين » .

وتلك حقائق جليلة القدر اذا تأملها الانسان سرح خاطره فى آفاق خطيرة من علم الله وغيبه وسمعياته لا طاقة له بادراك كائناتها ، ولا تصور شىء من هيئاتها ! وقد اعتاد بعض الناس أن يمروا بهذا الحديث الجليل وأمثالهمرورا عابرا ، كأنما يمرون بمعان عادية لاتستوقف الخاطر ولا تستلفت النظر ؛ مع أن الرسول عليه السلام لو لم يقررها لفنيت الأجيال ، وانقطعت الأعمار ، وانحسرت العقول دون تحصـيل لمحة واحدة من حقائقهما ؛ فكأن الناس استغنوا عن فضـل الله وما يقبل به على عباده فى مواسمه من منح ومغانم ونفحات فيها كل التوسـعة على أرواحهم فى عالمهم هـذا الضيق المادى المخنوق ! .

* * *

اذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة فلا تغلق الشهر كله . . ومعنى ذلك أنها كانت مغلقة قبل حلوله ! . .

واذا جاء رمضان غلقت أبواب النـار ، فلا تفتح الشهر كله . . ومعنى ذلك أنها كانت مفتحة الأبواب قبل حلوله !

فلو أن لنا بصائر تدرك مافى ملكوت الله من كائنات لطيفة دقيقة خفية، لأدركت طرفا من سر الجحيم يسرى فى ضمير هذا الوجود من قبل تلـكم الأبواب المفتحة فى سائر شهور العام ! . . ولو أن لنا بصائر تدرك، لأدركت مافى سريرة الـكون من لهفـة، ومالأرواح المؤمنين فى أبدانهم المادية من استشراف لغرة الهلال المبارك، تقبل عليهم بريح الرخاء والسعة، مؤذنة بعيد تصطفق له أجنحة الأرواح سروراً وبهجة . . ولعلموا حقيقة معنى الأثر الـكريم : « لو تعلم أمتى مافى رمضان من الخير لتمنت أن يكون رمضان العام كله ! » . ولكن مشاعر النـاس علقت بظاهر الحياة الدنيـا لابضمير الوجود . . ووعيهم وصـل بكيانهم المادى لابمدركات كائناتهم الروحية الدقيقـة، فهم يسمعون الـكلام القدسى أو يقرءونه دون أن تختلج فيهم خالجة فهم أو تأثر بما يقرءون أو يسمعون ! .

اننا فى رمضان بازاء عيـد عجب فذ بين أعياد الله، وان فى اغلاق أبواب النار وفتح أبواب الجنة لمعنى عظيما من اقبال الله سبحانه اقبالا لم يتشرف بمثله عيد سواه ! ! وان من هذا العجب الذى لاتقف نفحاته وأسراره عند حد أن ليلة واحـدة من لياليه ترجح فى ميزان الحق ليـالى ألف شهر من الشهور الأخر . . ترجحها لا لأن أديمها رصع بماس ولؤلؤ، أو حلى بذهب وفضة، ولكن بما يكون فيها مما يحير الألباب، ويدهش الأنظار، اذتغدو أرضنا هذه وقد نصب فيها عيد قدسى من اقبال الله وتجليه، وما يغدق من رحماته ونفحاته، حتى ان الملائكة لتهوى نفوسها الى غشيان هـذا العيد والمشاركة فى بهجته ونفحته، فتستأذن ربها والروح فيها باذنه من كل أمر، سلام هى حتى مطلع الفجر ! ! .

***

لقد جاءت السنن الصحيحة بثواب من صام رمضان ايمانا واحتسابا ! وجاءت بثواب من قام رمضان ايمانا واحتسابا !

وجاءت بثواب من قام ليلة القدر .. وثواب من بسط كفه سحاء بالخير والصدقة للفقراء . . ولكن لنا وراء ذلك مأربا بل مآرب ! !

لنا وراء ذلك بصائر من النور نريد ادراكها بقلوبنا . . . ومدد من عزائم الرشد نريد تحصيله لهممنا ونفوسنا ، فنحن أمة تقوم فى بيداء هذا العالم تجاهد للتحرير ، وتدعو أن تكون كلمة الله هى العليا ، فما لم يهب لنا من لدنه سلطانا نصيرا فمن لنا بالنصير ؟ ومالم يجعل لنا من نوره نورا فمن لنا بذلك النور ؟ !

اننا أمة غلبت علينا شـهوتنا ، فعبدناها ، وتفرقنا فى محاريبها الخسيسة نعبد المال ، والبنين ، والنساء ، والجاه ، والاثم ، والرياسة ، والمجد الدنىء الكاذب ، فضعفت نفوسنا ، ودب الوهن الى همم الكبار منا والصـغار ، وصاروا مسـوخا رخوة تلعب بها الشهوة ويطير بها الهوى فى كل واد . . وها نحن أولاء بازاء عيد روحى وفرصة لايتيحها لنا الله الا كل عام ، فيها المدد لعزائمنا ، وفيها النور لبصائرنا ، وفيها القوة لنفوسنا ، فهل نقبل عليها اقبالا يكافىء ما أقبل به سبحانه فيها من فضل ونعمة وشفاء ورحمة ؟

لقد أمر سبحانه بالجنة ففتحت ، وبالنار فأغلقت ، وبالشياطين فصفدت!! فماذا بقى علينا لادراك فضله سبحانه ، والتخلص من سموم الاثم والهوى؟.. هل بقى على كل منا الا نفسه التى بين جنبيه يعالجها باليسـير من الجهد ، وما أهونها وأضعفها بعد أن زال عنها عون قرينها المصفد فى الشياطين !!

لأمر ما وحكمة جليلة ، فرض الله عز شأنه علينا أن نصوم رمضان ! فهل لنا أن نلتمس فى جوانب تلك الحكمة أن ذلك الصيام أريد به فيما أراد الله سبحانه أن يكون هو المجهود الذى يقبل به المرء على نفسـه فيؤدبها به ويصفدها عن شواتها كما صفدت الشياطين فاذا سرائر المؤمنين قد زال عنها كل ضباب ، وصار لايحجبها عن فضل الله ونوره أى حجاب ؟ !

وهل لنا أن نستأنس لذلك بما علمنا اياه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن الصيام الحق لا يكمل الا بترك ما اعتادت النفس أن تلم به من هوى واثم . . « من لم يدع قول الزور والعمـل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » و « اذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ، ولا يصخب ، فان سـابه أحد أو قاتله فليقل انى صائم » . . . وما أعمق ما يقول الله فى الحديث القدسى عن الطعام والشهوة : « . . . الا الصوم فانه لى وأنا أجزى

به ، يدع شهوته وطعامه من أجلى» . ونحب أن نقول ان خصائصنا الروحية انما تحيا وتنتعش فى جو قدسى تراوحه وتغاديه أسرار النـــور ، والحياة ، وليس الانسان فى الحقيقة سوى تلك الخصائص ؛ فاذا انصرف الى شهواته الدنيا ، وأدار أعماله وأقواله على تلك المحاور ، فقد أفنى نفسه وحيّ فى غير حياة ، وليس كالشهوات ماحقا لصفاته معطلا لخصائصه الأصيلة ...

فصـــوم رمضان من هذا الوجه ان هو الا منهاج يتدرب به المرء على تحرير نفسه والانسحاب بها من أسر المادة وظلمة الشهوة ، ليحيا ما شاء الله فى ملكوت الحياة الحق ويكون له ماشاء الله من خصائص الخير والفضيلة.

فالحرية الصحيحة لايذوقها ولا يقدرها قدرها الا من حى هذه الحياة .

والنفس الكريمة القوية التى يؤمن عليها ، ألا تلين أمام مساومات المادة انما تستمد عناصرها ومقوماتها من هـــذا الأفق العلوى الكريم ، والروح الأبى الذى يرفض الضيم ويتأبى على الذل ، ويجاهد الطاغوت ، ويسعى فى اقامة الأوضاع العادلة انما ينشق عبير هذا كله من هذا العالم الملكوتى الطهور . . وكفانا بذلك عزيمة على الرشد وتوفيقا الى الخير وهداية الى الصواب ! !

البهى الخولى

من الطرائف

مر طفيلى بقوم يأكلون فقال : ما تأكلون ؟ فقالوا ــ من بغضه ــ سما ، فمد يده الى الطعام وقال : الحياة بعدكم حرام .

ومر طفيلى بقوم يأكلون فقال : سلام عليكم معشر اللئام ، فقالوا : لاوالله بل كرام ، فثنى رجله وجلس وقال : اللهم اجعلهم من الصادقين ، واجعلنى من الكاذبين .

ومر آخر بقوم يأكلون فسلم وجلس يأكل ، فقالوا له : أتعرف منا أحدا ؟ قال نعم هذا ، وأشار الى الطعام .

هدى الرسول

فضل الصيام وآدابه

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل : كل عمل ابن آدم له الا الصيام فانه لى وأنا أجزى به ، والصيام جنة ، فاذا كان يوم صيام أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فان سابه أحد أو قاتله فليقل انى صائم انى صائم ، والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، للصائم فرحتان يفرحهما ، اذا أفطر فرح بفطره ، واذا لقى ربه فرح بصومه . رواه البخارى ومسلم .

فرض الله تعالى الصوم على عباده ، وكانت لهم فيه الوقاية التى تحفظهم من الوقوع فيما ألفوه من العادات ، وتبعث فيهم خلق الصبر واحتمال المكاره ، فلم يكن القصد منه تعذيب النفس بترك ما تشتهى ، وانما المقصود منه ما هو أسمى وأرقى ، ألا وهو المران على ترك الشرور والأخلاق الفاسدة ، والمران على مواساة الضعفاء ، واحتمال المشاق والاضطلاع بعظائم الأمور ، والمران على مراقبة الله عزوجل فى جميع الأعمال ، ذلك أن الصوم عبادة موكول أمرها الى الصائم نفسه ، فهى سر بين العبد وربه لا يطلع عليها الا عالم الغيب والشهادة ، فليس للعبد فيها وازع ورادع سوى استحضاره أن الله مطلع على سره وعلنه ، ولهذا اختص الله الصوم من بين سائر العبادات فأضافه الى نفسه فقال : « كل عمل ابن آدم له الا الصيام فانه لى وأنا أجزى به » ، مع أنه هو المعبود بكل العبادات وحده لا شريك له : لأن الصوم يمنع ملاذ النفس وشهواتها ، فهو امساك وكف وترك ، وله من الآثار المترتبة فى نورانية قلوب العباد وضبط جوارحهم واحرازهم بذلك التقوى التى يشير اليها سبحانه فى قوله : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » ما لا يقدر أحد على تقديره الا عالم السر وأخفى ، أما غيره من العبادات فله صورة ظاهرة وربما فعله العبد رياء وتصنعا .

(والصيام جنة) أى سترة ووقاية من المعاصى بسبب حبس النفس عن الشهوات ، وفطامها عن الطعام والشراب ومألوف العادات ، اذ ليس للشيطان جند أعظم من امتلاء البطن بالطعام والشراب ، واذ ذاك تقوى عوامل الشر فيسترسل فى اقتناء المشهيات واقتراف المنهيات : (ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه) وهو جنة وساتر أيضا من النار والعذاب الأليم ، وهو كذلك جنة من الشيطان وتسلطه على النفس ، وهذا معنى قوله عليه السلام : (وسلست الشياطين) وقوله : (الصوم جنة وحصن حصين من النار) . فهو من غير شك يوقف الشهوات واللذائذ الجسمية عند حدها ، ويمنع طغيانها على الروح الطاهرة التى يجب أن يكون لها السلطان الأقوى والهيمنة التامة على الجوارح . (فاذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب) . والرفث : فحش القول أو ما يكون

منه فى مداعبة النساء ، والصخب : شـدة رفع الصوت حال الغضب ونحوه .
وهو ارشاد الصائم كى يسير فى طريق الامتثال بسهولة . وذلك أنه لما حبس نفسه عن مشتهياتها ، وقيد حريتها التى ألفتها ، سيشعر بحرج فى نفسه ، وضيق فى صدره ، وميل الى التنفيس عنها حتى يعوضها ما حرمت منه ، فيلتمس جلب التسلية لها فلا يسعفه الا التحدث فى المشتهيات التى حرم منها، وتعلقت نفسه بها ، فقد يجره ذلك الى ما لم يكن له فى حسبان ، وربما تردد على ذهنه الخواطر السيئة التى هى أول درجات العصيان ، فجاء النهى عن ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم : (فلا يرفث) سـدا لهذا الباب ، وتنزيها للصيام ، وتطهيرا لنفس الصائم عن علائق الشهوات ، وذكريات اللذات ، ولو على سبيل المجون والتسلى ، وذلك من قول الزور المنهى عنه ، ففى الحديث (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه) وأما قوله صلى الله عليه وسلم (ولا يصخب) فان النفس بهـذا الحرمان تكون ضعيفة الاحتمال ، سريعـة التهيج والانفعال ، فلأقل سـبب تثور ثائرتها ، ويستحكم غضبها ، فينطلق الصوت بالصخب ، وتتجلى مظاهر الغضب ، فمن الخير حفظ النفس من تلك الصيحة التى تؤدى الى الشر ، بردها الى الصـواب ، وتذكيرها بحكمة الصيام ، وأنه ماشرع الا لتهـذيب النفس ورد غوايتها ، وكسر حدتها ،

(والنفس كالطفل ان تهمله شب على حب الرضاع وان تفطمه ينفطم)

وبذلك يتحقق الغرض من الصوم فلا يقلب الدواء داء . ومن أجل هذا توسع الحديث فى بيان أنواع العـلاج بوصـف ماينبغى أن يلجأ اليـه الصائم اذا طرأ مايستفزه لذلك بأن يسابه أحد أو يقاتله فقال : (فان سابه أحد أو قاتله فليقل انى صائم انى صائم) يقولها لنفسه تذكرة وزجرا لها ليملك زمامها فيردها الى طاعة ربها ، ويقولها لمن تعرض له بالسباب والقتال ليذكره ان كان ممن يتذكر ليحذر التعرض له ، فان بينه وبين الله سرا وقربة وصلة ، خشية أن ينتقم الله منه دفاعا عن أحبابه وأوليائه ، أو ليقطع عليه طريق الطماعية فى استفزازه ان كان من الغافلين الطاغين ، واذ ذاك لايلبث السباب والمشاتم أن يهدأ اذا لم يجد من يجاريه فى طريقه ، والمشاهدة أعظم شاهد على ذلك ، فقل لى بربك ألا ترى أن فى هاتين الجملتين « انى صائم انى صائم » علاجا شافيا لما نراه مستحكما فى نفوس الصائمين فى كل حين ، من الميـل الى التلهى ، والتسلى بأنواع التسليات بحجة الصيام ، ومن استعذاب المجون وأحاديث اللهو ولعب النرد وغيره بقصد التسلية ، ومن الغضب والصخب حتى ليقال عادة لمن احتد « أأنت صائم » ؟ : عجيب ـ والله ـ أمر الناس ، يجعلون ماشرع لتهذيب النفوس وكبح جماحها، واضعاف قوة الشهوة والغضب فيهـا ، بابا تتطرق هذه الأخلاق الفاسـدة والصفات القبيحة الى تلك النفوس التى شرعت العبادات لتقويمها وتهذيبها ، فالحمد لله الذى هدانا الى طريقه المستقيم ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله (والذى نفس محمد بيده) والله الذى روح محمد بقـدرته (لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك) من المعلوم أن أحسن حال وأعظم وجه تقع عليه العبادة أن يقبل عليها صاحبها مغتبطا ومسرورا بها شاكرا نعمة ربه بهدايته اليها وتوفيقه لها ، فيكون منشرح الصـدر قرير العين بأدائها ، ولا يخشى على

العبادة من شيء أكبر من تأذى صاحبها منها ، واستثقاله لها ، وتبرمه بها ، فان ذلك يذهب بأجرها ويضيع ثوابها ، ولما كان ترك الطعام والشراب بالصيام مما يؤدى غالبا الى تغيير رائحة الفم ، فيشم المرء ذلك من نفسه ، ويعلم أن غيره قد يشمه منه فيتأثر ويتبرم بمقتضى الطبع البشرى ، أزال المولى تعالى عنه هذا الشعور ، شعور السأم والكراهية ، بهذا المثل الذى هو فى غاية الحسن ، وقد أقسم النبى صلى الله عليه وسلم على ذلك . ومعنى أنه أطيب عند الله من ريح المسك مع أنه جل شأنه منزه عن أن يلتذ برائحة طيبة أو يتألم لرائحة كريهة : معناه أن ذلك يقع منه موقع الرضا والقبـول ، ويقرب صاحبه الى مرضاته ، كما يكون من أحدكم تقريب المسك من أنفه لطيب رائحته ، فهو من باب التمثيل والكناية عن الرضا . فهذا الخلوف الذى هو تغير رائحة فم الصائم مرضى عند الله فى الدنيا مثاب عليه فى الآخرة . ثم ختم الحديث بهذه البشرى (الصائم فرحتان يفرحهما : اذا أفطر فرح بفطره ، واذا لقى ربه فرح بصومه) وهذا من تسلية النفس وتصبيرها على مشقة الصيام التى لعلها تتكره منها ، وبشرى للصائمين الذين يخشون ربهم بالغيب ، فصـامت جوارحهم وحواسهم عن المنكرات كما أمسكوا عن شهوتى البطن والفرج ابتغاء مرضاة الله : ففرح الصائم عند فطره : شكره لله سبحانه على أن أكمل يومه من غير أن يرتكب اثما أو يقترف ذنبا ، وعلى أن أبيح الطعام والشراب والشهوة بعد أن كان ذلك محظورا عليه . أما فرحه حين لقاء ربه فبما يغدقه عليه من الرضا والرضوان ، وبما يمنحه من رفعة الدرجات والاحسان ، حيث يتولى سبحانه الجزاء على الصيام بنفسه ، تنفيذا لوعده الذى لا يخلف (وأنا أجزى به) وقد قرن الفرحتين على بعد ما بينهما فى القدر والزمن ، لينبه بمشاهدة الفرحة الأولى فى العاجل عند الافطار ، على تحقق الفرحة الثانية فى الآجل عند لقاء الله . ولكن ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون .

أما بعد : فليذكر المسلمون أن شهر رمضان هو شهر الذكريات الخالدة : فيه نزل القرآن ، وفيه انتصر المسلمون فى غزوة بدر ، وفيه فتحت مكة ، وفيه ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر ، وفيه من الأسرار والنفحات القدسية ما يعرفه من ذاق لذة الصيام ، وتعرض لنفحات القيام ، فصام ذلك الشهر ، وقام لياليه ايمانا واحتسابا ، وأكثر فيه من تلاوة القرآن الذى أنزل فى ليلة القدر من شهر رمضان ، فمضاعفة الثواب فيه موعود بها ، فمن تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سـواه ، فهو شهر الصبر والصبر ثوابه الجنة ، كما ورد ذلك فى حديث سلمان : وروى الطبرانى عن عبادة بن الصامت أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (أتاكم رمضان شهر بركة ، يغشيكم الله فيه ، فينزل الرحمة، ويحط الخطايا ، ويستجيب فيه الدعاء ، ينظر الله تعالى الى تنافسكم فيه، ويباهى بكم ملائـكته ، فأروا الله من أنفسكم خيرا ، فان الشقى من حرم فيه رحمة الله عز وجل) وفى ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

نسأله تعالى أن يوفقنا لطاعته ، وأن يرزقنا حسن مثوبته ، فالكل منه واليه، ولا اعتماد لنا الا عليه ، وهو حسبنا وكفى .

محمد عثمان على
مدير التفتيش

بمناسبة نزعات الشك :

دفاع

عن العقائد والمثل الإسلامية

— ٢ —

١ إن أول عقيدة يدعو إليها الإسلام هى الإيمان بالعقل ، وقد يعجب من يقرأ كلامى هذا لأننى لم أقل : إن أول عقائد الإسلام هى الإيمان بالله ، وربما ، أنشدنى ما حسب أنى نسيتُه من قول صاحب الجوهرة :

أوّلُ واجبٍ على المكلفِ معرفةُ الله العلىِّ فاعرفِ

ولكن وجهتى فيما قلت واضحة ، ولا تنافى ما قاله صاحب الجوهرة ، فإن صاحب الجوهرة يتحدث عن أول واجب على المكلف ، وأساس التكليف هو العقل ، فما لم يؤمن الإنسان بعقله أولا فلا سبيل إلى تكليفه بأول واجب .

وقد وجدنا القرآن الكريم ينعى على الذين « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها » ويجعلهم « كالأنعام بل هم أضل » ووجدناه يطالب بالإيمان بالعقائد الأساسية عن طريق العقل ، ولا يكتفى من الناس أن يتلقوْها ميراثاً عن الآباء والأجداد ، أو أن يلقنّهَا المجتمعُ المسلمُ لأفراده تلقيناً :

وجدناه يقول : « أفلا يعقلون » « أفلا يتذكرون » « أفلا يتدبرون » « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » « وما يذكر إلا أولو الألباب » إلى غير ذلك من الآيات التى تذكر العقل والفكر والنظر والتدبر ونحوها ، فوجدنا « الإسلام يعرض نفسه على العقل ، و يعرض ماجاء به من عقائد ومُثُل على أهل البصائر المميزة ، حتى وصل الأمر فى بعض آيات القرآن

الكريم إلى أنه يُحَكِّم العقل فى شأن الإيمان بالوحدانية و يقبل حكمه ، إذ يقول « ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه » فالمفروض أنه لا برهان أبداً على أن مع الله إلهاً يُدْعَى ، ولكن القرآن — ثقةً منه بحكم العقل — فتح هذا الباب ، وكأنه يقول للناس : ارجعوا فى أمر الألوهية إلى عقولكم ، فإن وجدتم برهاناً — أى سلطاناً عقلياً — يُلجئ العقلَ إلى الإيمان بإله مع الله ؛ فإن حكم العقل فى ذلك يكون مقبولا ولا حساب على ذلك ، و إن وجدتم العقل يحكم بأن ذلك مستحيل وأن الله واحد لاشريك له ؛ فانزلوا على حكم العقل ولا تكابروا و إلا حوسبتم على ذلك وسئلتم عنه .

ولست أجهل أن المفسرين قالوا : إن هذا القيد : « لا برهان له به » لا يقصد به الاحتراز عما يقع من الإشراك ببرهان ، و إنما هو قيد لبيان الواقع — لستُ أجهل هذا ، ولكنى أرى أن مجىء هذا القيد على هذا النحو فيه إيذان واضح بتكريم العقل ، والاعتداد بحكمه ، ووجوب النزول على حكم البرهان والسلطان حتى فى أعظم قضية دينية جاءت بها الرسالات الإلهية ، و إنما يفعل ذلك الواثق المطمئن الذى لا يشك فى أنه على الحق ، وأن مافى يده هو الحق .

وقد وجدنا ذلك فى آية أخرى حيث يقول الله تعالى على لسان أصحاب الكهف « هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين » فهم يفرضون أن الأمر أمر سلطان ، أى حجة و برهان ، وأن الحكم حكم العقل بعد النظر والتفكر فأخرجوا الكلام فى صورة من يقول : لو كان لهم حجة وسلطان بيّن على ما اتخذوه من الآلهة من دون الله لكانوا معذورين ، ولما كان لنا أن نفر منهم ونخرج من بينهم ، و إذن فالبيئة التى تحترم حكم العقل هى البيئة التى تصلح للمُقام فيها ، أما البيئة التى تخرج على مقتضى العقل ، ولا تعبأ بحكم العقل فهى بيئة يجب الفرار منها و إيثار الإقامة فى الجبال والكهوف على الإقامة فيها .

إلى هذا الحد يرفع الإسلام شأن العقل فى أسمى قضية وهى قضية الإيمان الكبرى .

ثم وجدنا القرآن الكريم أيضاً يقول « ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبيّن له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نُوله ما تولى ونُصْله جهنمَ وساءت مصيراً » فيجعل مشاقة الرسول التى توجب العقوبة والمصير السَّوْء ، هى المشاقةَ بعد التبيُّن ، والتبيُّنُ هو وظيفة العقل بعد النظر والتدبر والتماس الدلائل ، فالله تعالى لم يرسل الرسول بأمر تأباه العقول ، أو تحار فيه الأفهام ، ولذلك جعل الإيمان به قضية معروضة على العقول وهو يعلم أنها قضية مكسوبة ، ثم وصل إلى منتهى الإنصاف فقال : فكروا وادرسوا لتتبينوا وقد جعلتُ ما يفضى إليه التبين هو حكمى ، وجعلتُ الأمر قبل التبيّن حريةً مطلقة ، وعفوتُ عما عسى أن يقع فى أثناء ذلك من المشاقة والمناهضة والمحادّة ، فأية حرية فكرية وراء هذه الحرية ؟ وأىّ اعتداد بالعقل وحكم العقل فوق هذا الاعتداد ؟

ولو أننا ذهبنا نستقصى موارد تكريم الإسلام للعقل لطال بنا القول ، ولما اتسع له هذا المجال ، والأمر فى ذلك واضح لا يحتاج إلا إلى يسير من الالتفات .

وإذن فلنا أن نقرر مطمئنين أن الإسلام صديق العقل ، أو أنه يراه الحاكمَ المنصفَ الموثوقَ به الذى يستطيع أن يُلقِيَ إليه بقضيته مطمئناً إلى فهمه وحسن إدراكه وإنصافه ، فهذه واحدة . .

٢ — والثانية أن الإسلام كما يكرّم العقل ، يكرّم العلم ، ويدعو إليه دعوة حارة مخلصة ، ويعتبر أمره أمراً أساسياً لا كمالياً ولا شأناً من شئون الزينة والمتاع ، وكيف لا يعده كذلك وهو يسند إليه الكشف عن الحقيقة الخالدة فى شأن الألوهية ، « شهد الله أنه لا إله إلا هو — والملائكة وأولو العلم — قائماً بالقسط » فى هذه الآية تقرير لحقيقة واقعة لا مناص منها ، وفيها ذكرٌ للذين يشهدون بهذه الحقيقة أى يعرفونها حق المعرفة ، ويقررونها تقرير الحقائق المشهودة المشهود بها ، فأما هذه الحقيقة ؛ فهى أنه لا إله قائماً بالقسط إلا إلهٌ واحد هو الله تعالى ، والقسط هو الميزان فى كل شىء : فى الخلق ، فى التقدير ، فى العدل ، وما قامت السموات والأرض إلا بالقسط ، ولا نزلت الشرائع إلا بالقسط ، وقد طلب الله من المؤمنين أن يكونوا

« قوامين بالقسط شهداءَ لله » ثم طلب منهم فى آية أخرى أن يكونوا « قوّامين لله شهداءَ بالقسط » فأرشد بهذا التنويع إلى أن « القوّامية لله » هى عينُ « القوامية بالقسط » وأن « الشهداء بالقسط » هم « الشهداء لله » ولهذا المعنى تسمى الله باسم « الحق » فقال « إن الله هو الحق المبين » .

هذه هى الحقيقة ، فأما الذين يعلمونها فهم الله وملائكته وأولو العلم ، فلننظر كيف رفع الله العلم وأولى العلم إلى منزلة تذْكر بالإضافة إلى اسمه الكريم وملائكته المقربين ! وما كان ذلك إلا لأن ملائكة الله هم الذين يشهدون صور تصريفه وتدبيره وحكمته وقسطه ووزنه ، وإلا لأن العلماء هم الذين يُهتدون بالعلم إلى إدراك الحقائق وشهود ما لا يشهده غيرهم ، والشهادة بما لا يشهد به غيرهم .

فهذا هو تكريم القرآن للعلم وأولى العلم .

وقل مثل ذلك فى قوله تعالى « ويرى الذين أوتوا العلم الذى أُنْزِل إليك من ربك هو الحقَّ ويهدى إلى صراط العزيز الحميد » ولا نستطيع أن نقصر العلم فى ذلك على علم الدين ، فإننا أمام استشهاد على صحة الدين بأن أهل العلم يرونه هو الحقّ ، ولا يمكن أن يُستشهد على الشيء بما هو مستمد منه ، فالمراد إذن هو علم الدنيا ، علم الحياة ، علم الكائنات ، علم القوى والسنن الطبيعية التى أودعها الله هذا الكون وسخرها للناس ، كلُّ ذلك يدل على أن الله حق ، وعلى أن الدين حق ، وعلى أن ما أنزِل على محمد فى العقائد والتشريع والمُثُل حقٌّ .

فهذه ناحية أخرى فى تكريم العلم والتوجيه إلى العلم ، ومصافاة أهل العلم .

والله تعالى يقول للناس « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ويقول لرسوله الكريم وهو مَنْ هو فى العلم : « وقل رب زدنى علماً » فيمكننا أن نأخذ من هاتين الآيتين أن القرآن يريد من الناس أن يعلموا أن أفق العلم واسع ، وأن مداه بعيد ، وأن ما عندهم منه ما هو إلا القليل ، وأن عليهم أن يستزيدوا منه ويستكثروا ولا يقفوا فيه عند حد ، وأن الرسول نفسه مطالبٌ بذلك مثلهم على سعة علمه وما أفاء الله عليه

من عرفان وتعليم ونور ، فهو مطالب بأن يستزيد من العلم ، ويتطلع فى هذه الاستزادة إلى الله ربه كأمنية من أمانيه التى يبتهل لها بالدعاء .

ذلك شأن العقل والعلم فى نظر الإسلام ، فكيف يمكن لعقل منصف ، أو لعلم مدرك ، أن يضيق بهذا الدين ، أو أن يستريب فيه ، ويقف منه موقف الخائف الوجل الذى يخشى أن يقع فى مأزق لا خلاص له منه .

إن هؤلاء الذين يتخوفون من الدين على العقل ، أو يتخوفون من الدين على العلم ، لم يفهموا الغرض الأسمى للدين ، ولم يتصوروا منه إلا أنه مجموعة من القيود والتكاليف حسبوها تحد من نشاط العقل ، أو تعارض تقدم العلم ، فلذلك خاصموها ظلماً وبغياً ودعوا إلى التحرر منها دون أن يفهموها ويدركوا كنهها ويعرفوا الغاية منها .

٣ — ولكنْ : من الإنصاف أن نقتصد فى لوم هؤلاء ، وألا نحملهم كل المسئولية فإن هناك مسئولين آخرين ربما كان قسطهم الذى ينبغى لهم من اللوم أشد ، أولئك هم رجال الدين أنفسهم . فنحن نعلم أن كثيراً من الشوائب قد اختلطت بتعاليم الإسلام وليست منها فى شىء ، ونعلم أن الكتب القديمة مع ما فيها من العلم الغزير والتحقيق العميق ، تتضمن أو يتضمن كثير منها أنواعاً من الخلط والتشويش تتحير معها عقول الناظرين فيها ، وقد كان لهذه الكتب شأن وتأثير ورسالة فى عصورها التى ألفت فيها ، حيث كان المسلمون بعيدين عن الأفكار الواردة ، والثقافات الطارئة ، وحيث كان كثير من الحقائق العلمية مجهولا لم يُكشف ، وحيث كانت الفلسفات القديمة ، والشبه المثارة حول الإسلام ، تتخذ طابعاً غير الطابع الذى تتخذه فى هذا العصر ، فهل من الممكن أن تظل هذه الكتب بأساليبها الخالطة المعقدة التى تضرب فى أودية غير أودية الناس فى عالمهم الحاضر ، والتى تعالج فى كثير من الأحيان أموراً لم يعد المجتمع الجديد يحس بها ، وتثبت العقائد والمبادىء والمثل ببراهين

لا تلتقى وأذواق الناس وما ألفوه فى حياتهم ومناطق تفكيرهم — أقول : هل من الممكن أن تؤدى هذه الكتب رسالة الإسلام الآن ، وتحافظ على أمانته فى هذا العصر ، وهى على ما وصفنا ؟

إننى لا أدعو أهل العلم لاجتناب هذه الكتب ولا أغض من قيمتها التى أعرفها جيداً ، وما أنا إلا ثمرة من ثمراتها ، ولكننى أشفق عليها الآن من الناس ، كما أشفق على الناس منها ، إننى أريد لها أن تظل مراجع لمن أراد التحقيق والبحث العميق ، واستطاع أن يستخلص الصحيح من الزيف ، والنقى من المشوب ، وأريد للناس كتباً جديدة مستمدة منها بأسلوبهم الحى المعاصر ، لا بالأسلوب الذى مات وعَفَّى عليه الزمان ، أريد كتباً يقرأ القارئ ما يشاء منها فى ساعات معدودة ، فيفهمه ويعرف مرماه ويخرج منه بفكرة واحدة فى موضوع معين ، أو بأفكار متعددة فى موضوعات متجانسة .

لقد سئلت كثيراً من بعض المثقفين الحريصين على التزود من الثقافة الإسلامية عن كتاب من كتب التفسير يستطيع المثقف العادى أن يفهمه وأن يرى فيه معانى القرآن الكريم ميسرة واضحة ، وأن يكون خالياً من الحشو والروايات المدخولة والتخريجات السقيمة ، والأحاديث الضعيفة ، إلى غير ذلك مما يحول بين المرء وقلبه فى الفهم والإيمان المستقيم — سئلت كثيراً عن مثل هذا التفسير ، فكنت أحتار بم أجيب ، وبأى كتاب من كتب التفسير أشير ، أفما كان من واجبنا — أهل العلم الدينى — أن نخرج مثل هذا الكتاب فنسد به هذا النقص ؟ وكيف نلوم الناس إذا أعرضوا عن الدين ، وجفلوا منه ، وتشككوا فيما جاء به ، ونحن من أسباب هذا الإعراض ، وهذه الجفوة ؟

إن عندنا بضاعة جديدة ، ولكنها تفتقر إلى عرض حسن بأسلوب حديث ، ويومئذ يقبل عليها الناس ، فتزاحم غيرها من البضائع المجلوبة ، ويكون لها رواج أىُّ رواج فى سوق العلم والتفكير ؟

محمد محمد المدنى
الأستاذ فى كلية الشريعة

أسرار الشريعة

أشواك فى طريق الإسلام :

المعاول الهادمة أيضا

تمكنت الدعوة الانسحابية فى المجتمع الإسلامى ، وأخذ سرابها الخداع يلوح لكثير من المسلمين و يغريهم بالانطلاق إليه والحياة فى جانبه . . . ولم يقف تأثيرها عند العامة والدهماء بل جاوزهم إلى بعض العلماء وأصحاب الفلسفات الذين استطاعوا أن يصوروها فيحسنوا تصويرها ، وأن يقيموا لها دعائم تستند إليها ... وهذا مما قوى هذه الدعوة وضاعف من خطرها .

لقد كان المعرى — مثلا — أكبر داعية لهذه الدعوة ، وصاحب قدم راسخة فيها .. فهو شاعر ، وكاتب ، وفيلسوف ، صبغ فلسفته بهذا اللون الأسود الحالك ، ولون به أدبه من شعر ونثر .. ولم يقف عند هذا الحد بل كان عملياً ومنطقياً مع نفسه ، ففرض على نفسه حياة خاصة هى تطبيق عملى لكل آرائه التى صورها فى شعره وفى نثره ، لقد التزم فى حياته رياضة مرهقة قاسية فحرم على نفسه ما أحل الله من طيبات ، فجنبها أكل كل ذى روح وما يخرج من ذى روح ، واتخذ له زياً خشناً جافيا ، ومسكناً مقفراً مظلماً ، وقطع العمر على الكفاف من العيش ، لا ينال منه إلا ما يسد الرمق و يمسك الحياة .

ولو أن المعرى وقف عند هذا الذى فرضه على نفسه لهان خطبه ، ولكانت جناية خاصة به لا تتجاوزه إلى المجتمع الذى عاش فيه ، ولا إلى الأجيال المقبلة من بعده . ولكنه كان شاعراً أديباً فملأ شعره ورسائله بهذا الزهد المريض ، وصور للناس الحياة فى صورة مخيفة مفزعة تثير فى النفس دوافع الهرب والفرار منها .

فما أكثر ما يعرض المتنبىء فى شعره من صور التشاؤم بالحياة ، وأنها سراب خادع ، وزيف باطل لا أمان لها ، ولا اطمئنان إليها ، فلِمَ الطلب ولمَ العناء . يقول مثلا :

وأهون من عيش الغِنَى عيشُ فاقة ومن زى مَلْك رائق زى راهب

ويقول :

رأيت الحتْفَ طوّفَ كل أُفق وجاب الأرض من مصر وكَفْرِ (١)

وكيف يُثَمِّرُ الإنسان وفرا ولم يخرج من الدنيا بوفر ؟

ويقول :

لا ذنب للدنيا فكيف نلومها واللوم يلحقنى وأهل نحاسى (٢)

عنب ، وخمر فى الإناء ، وشارب فمن الملوم ؟ أعاصر أم حاسى (٣) ؟

ولم يكن المعرى وحده فى هذا الميدان بل كان من ورائه كثيرون من العلماء وأصحاب المذاهب يسوقون الناس سوقا إلى أودية التيه والعدم ، ويباعدون بينهم وبين الحياة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . . وقد استطاعت هذه الدعوة أن تبلغ من نفوس العامة مبلغا خطيرا ، وأن تملأ خيالهم الساذج بصور مبهمة مختلطة لما وراء المادة . . . فزحفت على دنياهم روحانية أشبه بالأشباح المتراقصة تلوّح لهم بالوصول إلى مراتب « الكشف » والتعرض لأنوار السماء . . . وما هذا كله إلا سراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاء لم يجده شيئا . . . خذ لذلك مثلا فرق المتصوفة ، وهى فرق كثيرة لا حصر لها . . . وطريقها جميعا قائم فى ظاهره على الزهد فى الدنيا ، وأخذ النفس بنظام خاص فى العبادة وفى أسلوب الحياة . وقد تبع ذلك إعداد مناهج خاصة وأساليب معينة لنظام العبادة وأوقاتها ، وتأليف مجموعات كبيرة من الأدعية والأوراد واتباع نهج خاص فى أدائها على هيئة جماعات تقوم وتقعد ، وتميل وتعتدل ، مرددة هذه الألفاظ فى صور غريبة من الأنغام التى لا يفهم لها معنى ، ولا تقع من نفس مرددها موقعاً يبعث على عمل نافع أو سلوك محمود .

لقد جذبت هذه الطريقة كثيراً من الناس ، واستهوتهم بما يلوح فى ظاهرها من بلوغ منازل فى عالم الحقيقة ، والوصول إلى مراتب الكشف ، فما أكثر ما يتردد فى

(١) يريد بالمصر المدينة ، وبالكفر القرية الصغيرة .

(٢) النحاس أصل الشىء . (٣) الحاسى . الشارب .

المحيط الصوفى من عبارات « المريد » ، « والشيخ » ، « والقُطب » ، « والطريق » « والحضرة » ، « والمقام » وما أكثر ماتجرى بينهم « الشطحات » التى تفوح منها روائح الخلط والإلغاز فى عبارات مضطربة أشبه بسجع الكهان ، توهم السامع أنها مشحونة بالأسرار مليئة بالنبوءات ، وأن وراء كل كلمة معانى لا يعرفها إلا من دخل مع القوم مدخلهم ، وسلك طريقتهم ، فتلك الأسرار إنما هى مقصورة على أبناء الطريق !!

لا نستطيع أن ننكر أن فى جماعة المتصوفة أفراداً لهم هذا الاستعداد الطيب للإشراق النفسى ، وليس ذلك فى جماعة المتصوفة وحدها بل هو فى كل مجتمع .. إذ لا تكاد تخلو طائفة من الطوائف أو مجتمع من المجتمعات من ذوى النفوس الكريمة الصافية التى تنجذب إلى الخير وتعمل له ، فذلك عند بعض الناس فطرة تستجيب للعمل الصالح ، وعند بعضهم تربية وتعليم تغرسه وتنميه .

والتصوف فى ذاته — إذا استقامت طريقته — لون من ألوان التربية الفردية ، يعالجها المرء ، ويستقبلها حسب استعداده وينتفع بها على قدر طاقته .

أما أن يكون التصوف مدرسة عامة لتخريج الأخيار الطيبين من الناس فذلك ما لا نستطيع القول به ، ولا يقوم عليه شاهد من واقع الحياة ، بل ربما كان الأمر عل عكس هذا . . فإن طريق التصوف محفوف بالمزالق ، ملىء بالمُعَمَّيات ، كثير الدروب والمتاهات ، وقد دخل فيه كثير من العلماء فضلوا ، وانتهى بهم الأمر إلى الإلحاد والكفر .. أما العامة — وهم أكثر أبناء هذا الطريق — فما أكثر هلكاهم فى هذا المجال ، إنهم هنا أشبه بالحشائش المتسلقة التى تستند إلى قطع من الخشب .. تعلو ، وتعلو ، ولكنها لا تعتمد على جذور ، ولا تعتز بفروغ ، ولا ترتبط إلى أصل تغتذى منه ... وهم لهذا فى معرض الضياع والهلكة لأول صدمة من صدمات الحياة .

إن الإسلام قد حارب الكهانة ، وأنكر سجعها ، لما فيها من تعمية وتضليل .. إنها رموز يستطيع منشئها أن يفسرها التفسير الذى يجىء عليه الواقع المنتظر ... وفى ذلك ما فيه من تضليل وخداع .

سأل رجل النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : أرأيت من لا شرب

ولا أكل، ولا صاح ولا استهل، أليس ذلك فطل [١] فقال عليه الصلاة والسلام منكراً هذا اللون من الحديث: أسجع كسجع الجاهلية ؟ » .

وفى الصوفية عبارات كثيرة غامضة تدور على ألسنة الشيوخ ورؤساء الطريق ، يرددها أتباعهم والمتعلقون بأذيالهم . . وهى عبارات تنحو مناحى مختلفة من القول المريب الذى يدخل على نفس المسلم كثيراً من الحيرة والاضطراب ، فمن العبارات التى تردد فى أجواء الصوفية أن يقول قائلهم : سبحانى ، ما أعظم شأنى . أو كما يقول الحلاج « مافى الجبة إلا الله » ومثل هذه العبارات — إن كان لقائليها وجه من العذر للحال التى كانت تلبسهم وقت القول من نشوة التواجد — يتلقاها الأتباع ويرددونها فى حال يقظتهم وكامل وعيهم فتملأ خيالهم المريض بكثير من صور الأوهام التى تدفع بهم إلى مزالق الكفر .

والإسلام أبرز خصائصه — كما قلنا من قبل — أنه دين لا يعترف بالرياسات الدينية ولا يرضى بأن يكون بين الناس وخالقهم حوائل من أصحاب الوساطات ، فليس بين الله و بين المسلم إلا قلبه وعقله ، يديرهما فى ملكوته فيراه عظيما ، حكيما ، عليما ، فيخشع له و يؤدى حق المعبود على العبد حسب ما رسمته الشريعة ، و بيَّنه الرسول الأمين . ثم إن مجتمعاً كمجتمع الصوفية تجرى فى تفكيره مسائل عويصة من المباحث التى تدور حول الإلهيات كوحدة الوجود وما يتصل بها من بحوث حول الذات والصفات ، قد أعيت العقول ، وحيرت الألباب وأوقعت العلماء فى كثير من المزالق : فكيف يؤمن على العامة — وهم أكثر أتباع المتصوفة — من أن يضلوا و يغرقوا فى لجج هذه الاتجاهات التى يساقون إليها .

إن طريق التصوف لا يمكن أن يكون فى شريعة الإسلام مذهباً عاماً يدخله الناس من أى باب . . ذلك لأنه قائم على الزهد فى الحياة ، واعتزال الناس . والإسلام ليس دين زهادة وعزلة ، و إنما هو دين عمل و إنتاج ، ودين اجتماع وارتباط بالحياة والأحياء جميعاً — ثم إن التصوف الصحيح لون من ألوان الفلسفة ،

---

(١) طل : اى لا دية له ، يريد السائل أن يعرف حكم الجنين إذا مات قبل أن يخرج إلى الحياة .

وصورة من صورها ، إذ هو وليد فهم خاص للحياة ، وثمرة تفكير طويل فيها ، لا يمكن أن يعيش فيه إلا من بلغ به تفكيره إلى هذه النتيجة فارتضاها مذهباً واطمأن إليها طريقاً ، وراض نفسه على هذا اللون من الحياة ، ليحقق ما انتهى إليه تفكيره ونظره إلى هذه الحياة .. هكذا نعرف أصحاب الزهد والتصوف، كالحسن البصرى، وأبو العتاهية، والمعرى .. فهؤلاء وأمثالهم أصحاب نظر وفلسفة قبل أن يكونوا أصحاب مذهب فى الحياة

يمكن إذن أن يكون التصوف مذهب أفراد متناثرين هنا وهناك ، استجابة لبعض النزعات النفسية والاتجاهات الفكرية . . أما أن يكون التصوف مذهباً له دعاة وله مبشرون يذيعون فى الناس ما ينسبون له من فضائل يمنونهم بها ويدنونهم منها ، ويفتحون لهم الباب بهذه المغريات — فذلك خطر يتهدد الناس فى عقولهم ويفسد عليهم دينهم ودنياهم معاً ، خاصة طائفة العوام وهم — كما قلنا — أكثر الناس استجابة لهذه الدعوة جرياً وراء سرابها الخداع .

لا أظن عاقلاً رشيداً من المتصوفة ينكر هذا ، وكيف ؟ وحسبه أن يلقى بنظره إلى زمر المتجمعين حوله من الأتباع . إنه سيجد كثيراً منهم ممن خولط فى عقله ، والتاث فى تفكيره ، وعاش فى الناس مسخاً غريباً بين إشفاق المشفقين وعبث العابثين ؛ فإن تكن هذه الصور التى تعيش فى محيط الصوفية من المجانين قد دخلت الدعوة بحالها تلك من اختلاط العقل والتياث الفكر فذلك مما يؤذى الدعوة ويشينها ، ويصمها بالتفاهة التى من شأنها أن تجذب إليها هذه الأمساخ من الناس .. وإن يكن هؤلاء الأتباع قد أصيبوا بما هم فيه حين دخلوا فى محيط الصوفية وانتموا إليها وعاشوا فيها فما أكبر جنايتها على العقول ، وما أعظم جرمها على الناس .

مرة أخرى نقول إنه من الخطر الماحق أن يقوم التصوف على أسس دعوة عامة ، تأخذ مظاهر « النقابات » التى تضم أصحاب الأعمال والحرف ، ويكون للجماعة فيها وضع خاص فى المجتمع ، فذلك مع أنه مظهر من مظاهر الفرقة الدينية فى جماعة المسلمين ، إلقاء بكثير ممن ليس لهم استعداد خاص لهذا اللون من الرياضة ، إلى الضياع والتهلكة .

عبد الكريم الخطيب

مناقشة آراء :

الزواج المدنى

وزواج المسلمة من الكتابى

اطلعت على مقال نشره السيد الدكتور محمد أحمد خلف الله فى مجلة روزاليوسف الصادرة يوم الاثنين ١٩٥٥/١٢/٥ يبيح فيه الزواج المدنى وزواج المسلمة من الكتابى.

ولما كان القول بحل المسلمة للكتابى ذا خطر دينى بالغ بعد نشره فى صحيفة عامة ، أصبح محتوما على العلماء أن يبينوا حكم الله للناس فى هذه المسألة ليكونوا منها على بصيرة .

وإننى أعتب على الدكتور أن ينشر رأياً كهذا فى الصحف السيارة لا يتصل بنا نحن المسلمين وحدنا ، وكان الأجدر به قاعة محاضرات يدعى إليها صفوة من أهل الفكر ، ويعرض فيها هذا الرأى للمناقشة العامة ليدلى كل عالم برأيه فيه ، ثم يخرج العلماء بعد ذلك برأى نضيج مدعم بالأسانيد بدل هذا النقاش العلنى بالصحف فى أمر له أعظم الخطر ، ولكن قدر فكان ، وأصبح الرد العلنى من حق الجميع فى أضيق الحدود ، وفاء لحق الاعتبارات المختلفة ، وسأبدأ بالحديث عن هذه المسألة لأهميتها مثنيا بالزواج المدنى :

الموضوع

١ — يبيح الدكتور خلف الله زواج المسلمة من الكتابى ، ويدلل على إباحته بدليلين أحدهما الكتاب الكريم والثانى استتباع الأصل .

فأما دليل القرآن فهو قوله تعالى « اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن » الآية ، وطريقة الدكتور فى الاحتجاج بالآية عجيبة ، إذ يقول إن هذه الآية تخاطب الرجل ولكنها تقصد من الحكم الشرعى الرجال والنساء على السواء ، وذلك هو أسلوب القرآن يخاطب الرجل بالحكم الشرعى ويقصد الرجل والمرأة على السواء ؛ فالطيبات فى الآية حلال للرجل والمرأة وطعام الذين أوتوا الكتاب حلال للرجل والمرأة ، والزواج حلال للرجل والمرأة المؤمنين ، ويقول الدكتور ولو أمضينا القياس على طريقته لتبين لنا أن الزواج حلال للرجل والمرأة المتدينين بأديان سماوية .

وهذا الدليل يا دكتور (لا ينتج) المدعى ، فقد علمت أن هذه الآية والتى قبلها نزلتا فى المسلمين يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أحل لهم ، ولم تنزل فيهم وفى الكتابيين لا نصا ولا استنباطا حتى يقال إن الكتابى تحل له المسلمة ، فالمعنى يسألك المسلمون ماذا أحل لهم ، قل أحل للمسلمين الطيبات وصيد ما علموا من الجوارح وطعام الذين أوتوا الكتاب والمحصنات من المؤمنات والكتابيات ! فالكتابى لا دخل له فى هذا الحكم لأنه حكم وارد على سؤال خاص بالمؤمنين ، ومن القواعد الأصولية أن الاقتصار فى مقام البيان يفيد الحصر ، انظر معى ، لو كان الكتابى يصح له الزواج من المسلمة لنص عليه فى الآية لخطورته ، فإنه قد نص فى الكتابى على ما هو أدنى من ذلك حيث قال فيهم « وطعامكم حل لهم » فلو كان زواجهم من المؤمنات يصح شرعا لقال على وزان هذا ونكاح نساء الكتابيين مع نسائكم حل لكم ، ونكاح نسائكم مع نسائهم حل لهم ، لشدة الحاجة إلى بيان هذا الحكم فى جواب سؤال السائل ليعلم ما يحل له تعاطيه فى حقه وحق بنات جنسه .

وقياس الكتابى على المسلم فى زواج المسلمة مفقود التكافؤ فلا يصح ، ولو سلمنا القاعدة التى ذكرتموها من أن الأحكام التى يخاطب بها الرجال المسلمون تكون دائما للنساء المسلمات لصح أن يفهم من قوله تعالى « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » أن الحكم فى النساء كذلك ، بأن تنكح المرأة ما طاب لها من الرجال مثنى وثلاث ورباع ، ولا أعتقد أن ذلك يسمح به مخلوق فى الوجود من ذوى العصمة العقلية والخلقية ، فتبين أن الأحكام التى يخاطب بها الرجال ليست دائما مشتركة ، ولا تكون مشتركة إلا إذا قام الدليل على صحة هذا الاشتراك .

ولقد أدركتم ضعف هذا الدليل فقلتم ، ولو أعرضنا عن هذا الدليل وقلنا إن القصد من هذه الآيات ليس إلا زواج المسلم بالكتابية لبقى أمر المسلمة من الكتابى من الأمور المسكوت عنها ، وقد أغنيتمونا بانصرافكم عنه عن متابعة تفنيده .

الدليل الثانى الذى أيدتم به دعواكم أن الأصل فى الأشياء الحل فلا تحرم إلا بدليل، ولما كان نكاح المسلمة للكتابى لم يرد فيه دليل فيكون حلالا على الأصل كما قلتم

وردنا على ذلك أن القاعدة الأصولية المذكورة ليست على إطلاقها ، بل هى فيما تملكه أنت ؛ أما ما يملكه الغير فالقاعدة الشرعية والأصولية فيه التحريم ، فلا يحل إلا بدليل وأبضاع النساء ملك لهن فلا تباح للغير إلا بدليل ، وقد جاء الدليل بإباحتها للمسلين من مسلمات أو كتابيات بعقد ، فتبقى أبضاع المسلمات حراماً على أهل الكتاب على الأصل ، إذ لم يأت فى حلها دليل .

واعلم يادكتور أنه قد مر على الإسلام أربعة عشر قرناً تقريباً لم يثبت فيها أن كتابياً تزوج بمسلمة زواجاً مفتى به ، وأنه لم يقل أحد من علماء المسلمين ذلك ، لأنه لا يصلح نصاً ولا استنباطا ، ولم نقرأ عن الأولين إلا غلوا فى تفسير الآية لمنع زواج المسلم من الكتابية ، فالإمامية يمنعون نكاح الكتابيات على الدوام لقوله تعالى « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » وأولوا الآية بأن المراد من المحصنات الكتابيات اللاتى أسلمن ، لأن قوما كانوا يتحرجون من العقد على من أسلمت عن كفر ، فبين الله الجواز ، وإلى مثل ذلك ذهب عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، ومنهم من ذهب إلى أن نكاح الكتابيات منسوخ بمنع نكاح الكوافر فى الآيتين السابقتين ، وهن كافرات لقوله تعالى « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » ومشركات لقوله تعالى « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم » سئل جابر عن نكاح الكتابيات فقال (تزوجناهن زمن الفتح ونحن لا نكاد نجد المسلمات كثيراً : فلما رجعنا طلقناهن) والراجح عند الجمهور جواز نكاح المسلم للكتابية لظاهر الآية ، أما العكس فلم يقل به أحد من المسلمين .

أما بعد فلعلنا نكون بذلك قد كشفنا الغطاء عن الحكم فاستبان ، ولعل الدكتور يوافقنا فيما ذهبنا وذهب من فى جيلنا ومن قبلنا إليه بعد ما أوردناه له من الحجج ، ولعله يتحرج بعد من أن يكون ولد المسلمة غير مسلم تبعا لأبيه المسيطر عليه .

٢ — الزواج المدنى — أما الزواج المدنى فمسألة سهلة هينة لا تحتاج إلى أن تجعل موضع نقاش فالزواج إيجاب وقبول وشهود صادقون ، فمتى تم من أهله على سنة الله فهو زواج مقبول شرعاً ، سواء باشره مأذون شرع أو مسجل عقد أو باشره الزوجان

الرشيدان أو الوليان بدون حضور مسجل ، وما العقد الكتابى سواء كان على يد مسجل فقيه أو غير فقيه إلا لحفظ حقوق الزوجين من الضياع ، ومسجل العقد حاليا هو رجل مدنى إذ هو من المدنية ، وشرعى إذ عمله موافق للشرع ، وكثير من المأذونين ليسوا علماء ، فشأنهم كشأن مسجلى العقود تماما ، وهم موظفون حكوميون يجرون على قواعد شرعية معروفة ، فأى تغيير فى زى المأذون أو ثقافته فإنه لن يخرجه عن طبيعة عمله كمسجل مدنى شرعى طالما أنه يسجل العقد على طريقة شرع الله تعالى ، فلا يقال بعد هذا زواج مدنى فقط أو شرعى فقط ، وإنما احتاج الغربى إلى مسجل مدنى لأنه لما احتاج إلى الطلاق ولم تسعفه قوانين الكنيسة كما لم تسعفه بعد بزواج جديد احتاج لابتكار فكرة الزواج المدنى البعيد عن الكنيسة ، فما حاجتنا إليه وكلا الأمرين سائغ فى الإسلام بقواعد ميسرة للجميع .

وقد بقيت بعد هذا مناقشات قليلة فى تعريف الكافر والمشرك والكتابى والفرق بين كل منهم ، وإننى أحيل الأستاذ إلى صدر سورة (البينة) ففيه البينة وشفاء ما فى الصدور ، ومثله فى القرآن قد تعدد وتنوع فارجع إليه ففيه رى الظمآن .

لا أحد يمانع فى مخالفة ما جرى عليه العرف إن استند إلى دليل ، فالوصية الواجبة لم تورث أولاد الابن والبنت بل أعطتهم برًّا أوصى به الله بنص القرآن الكريم ، قال تعالى « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين » فليست العطية لأولاد البنت والإبن حدثا فى الإسلام ، بل كانت شرعة سابقة على قوانين المواريث ، فلما نزلت تلك القوانين اختلف الفقهاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إبقائها معها فمنهم من أبقاها ومنهم من منعها ، والمانعون كانوا الكثرة الغالبة ، فلهذا أخذ الناس برأيهم ، فتنفيذ الوصية اليوم هو أخذ بالرأى المقابل المستند إلى نص قرآنى ، وأين هذا من تزويج الكتابى من المسلمة الذى لم يقل به أحد من قبل لأنه ولد يتيما لا أصل له ، ولا يمكن أن يخطر بقلب مجتهد . وحسبى ذلك اليوم . وسلام على جميع من اهتم بهذا الموضوع وعلى الدكتور الذى أعتقد أنه اقتنع الآن بالرأى المقابل ، والله يتقبل منا ويرعانا إنه سميع مجيب .

مصطفى الحديدى الطير
من علماء الأزهر ومدرس بمعهد القاهرة

هل الدين ضرورة؟ ! . .

هل الدين ضرورة ؟ . . .

هذا سؤال ألقوه ، ويلقونه ، وسيلقونه من حين الى حين ؛ وهناك من يسارعون بالجواب قائلين : ليس الدين بضرورة ؛ متابعين فى ذلك ضيقهم بالدين أو جهلهم له ، كما أن هناك متدينين يضيقون بهذا السؤال ، ويرونه عبثا من القول ، ولا يعنون بالجواب أو الارشاد .

وعندى أنه لابد من الجواب ، ولابد من مواجهة الشبهات بما يزيل ظلامها وقتامها ، وبما يهيىء للحقيقة أمنها وسلامها ؛ ولابد للاجابة عن هذا السؤال من تحديد معنى الدين ، وتحديد معنى الضرورة ، فما هو الدين ؟ وما هى الضرورة ؟ .

ذكرت المعاجم العربية لكلمة الدين معانى كثيرة منها : الطاعة ، والقهر ، والحساب ، والعادة ، والجزاء ؛ والضرورة هى الحاجة اللازمة التى يضطر الانسان اليها ولا يستغنى عنها ، وقد عرف علماؤنا الدين بأنه : « وضع الهى سائق لذوى العقول السليمة باختيارهم الى الصلاح فى الحال ، والفلاح فى المآل » أو « وضع الهى يرشد الى الحق فى الاعتقادات ، والى الخير فى السلوك والمعاملات » ؛ والفيلسوف (كانت) يقول : « الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث أنها قائمة على أوامر الهية » . ونلاحظ أن تعريفات الاسلاميين للدين أدق وأعمق من تعريفات سواهم .

ونستطيع أن نعرف الدين بأنه الايمان بذات الهية مستحقة للاجلال والطاعة ، مع اظهار هذا الاجلال وتلك الطاعة فى طائفة من العبادات والأعمال ؛ وهذا الايمان يقتضى خضوعا وتعبدا من المعتقد ، وسلطانا ورعاية من المعتقد فيه ، فيتحقق العمل ويكون الجزاء .

والتدين — كما أثبتت الملاحظة وأنتج البحث — غريزة عميقة الجذور فى النفس البشرية ، وما بالذات لايتخلف ، وان استتر حينا أو ضعف ، ولذلك نرى التدين حظا مشاعا فى الجماعات الانسانية ، ونصيبا مشتركا

بين الأمم الحاضرة والغابرة ، والشعوب البادية والمتحضرة ؛ ويقرر معجم (لاروس) أن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجنـاس البشرية ، وأن العناية بالجانب الالهى نزعة عالمية خالدة للانسانية ولا تذبل غريزة التدين الا فى فترات الاسراف فى الحضارة ؛ وعند عدد قليل جدا من الأفراد . كما ينادى هنرى برجسون قائلا : قد توجد جماعة بغير علم أو فن أو فلسفة ، ولكن لا توجد جماعة بغير دين ! أ . . وهـذا تقرير من غربى متعمق يدل على أصالة الدين فى جذور النفس البشرية .

ولنرجع الى التاريخ ، فالماضى يفسر الحاضر والمستقبل ؛ فقد كان لقدماء المصريين دياناتهم منذ ألوف السنين ، وسـجلوا هذه الديانات فى البردى وعلى جدران المعابد والمقابر ، وعرفوا الاله الغيبى الأزلى الدى لا تصوره الرسوم ولا تحده الحدود ، وكذلك كان عند اليونان والرومان دين وتدين، وان اختلطا بالوثنية أو الضلال فى التفكير ، ثم جاءت اليهودية والمسيحية وعقبهما الاسلام المتمم الدائم ، وكان لكل من هذه الديانات أتباع وأنصار يعدون بالملايين أو بمئات الملايين . والاسلام الحنيف يشير الى أن التدين والايمان بالله فطرة أصيلة فى بنى الانسان ، فالقرآن الكريم يحدثنا أن الله قد أخذ من ظهور بنى آدم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا . . والقرآن يحدثنا عن فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وهى فطرة الايمان والاقرار له ؛ وقد أثبت الباحثون أن فكرة « الاله الأعظم » عرفت طريقها الى جميـع القبائل حتى القبائل الهمجيـة المتأخرة ؛ والذين تقطعت بهم أسباب الاهتداء الى طريق التدين الصحيح ، كانوا لاينكرون الله ، ولا ينكرون الخضوع له ، ولكنهم كانو ايبحثون عن السبيل ؛ وهذا زيد بن عمرو بن نفيل قبيل الاسـلام يقول : « اللهم لو كنت أعلم أى الوجوه أحب اليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلمه » . فهو يسائل عن الطريق المرسوم ليكون صاحب دين معلوم . . .

وحتى الذين عبدوا الأصنام والأحجار والأشجار لم يقفوا فى عبادتها ـــ كما قالوا ـــ عند ظاهر الحس ، بل كانوا يتخذونها رموزا لمعان روحية دينية قد تكون غامضة وقد تكون منحرفة ، ولكنها على كل حال لها صلة

بالتدين ، وقديما قال عبدة الأصنام من العرب : « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » . وحتى الذين يقولون بالخضوع للقانون الأخلاقى أولسلطة الضمير لا يخلون من دين ، لأن دينهم هو الخضوع لذلك الرقيب ، وان كان الأفضل والأجمل هو أن نخضع لخالق ذلك الضمير ، الذى يسمع الهمس والنجوى ويعلم السر وأخفى : « وأسروا قولكم أو اجهروا به انه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ؟ . . ومن هنا كان الخضوع الدينى أعمق ألوان الخضوع .

ولا يمكن لانسان مفكر أن يخلو من دين ، لأنه يطالع ببصره ويدرك بحسه مشاهد هذا الكون العظيم ، فتبهره وتسحره ، ويفكر فيها بعقله ليعللها أو يدرك أصلها ، فاذا روحه تحلق به فى آفاق واسعة مرتفعة ، واذا هو يطرق باب الايمان بالله ، ويصل منطقة الخضوع لموجد هذه الحياة . ومن هنا قال (رينان) : « يستحيل أن يزول التدين من الوجود » . وكيف يزول ولله فى كل مشهد دليل وبرهان على أنه الواحد ؟ ! . .

ومن أصالة الفطرة الدينية فى النفس البشرية أن يلجأ منكر الدين أومهمل التدين الى ربه ومولاه فى ساعة الضيق ولحظات الشدة ، فحين يستنفد المرء جهده ويستخدم سائر وسائله ولا يصل ، يفزع الى الله يسأله المعونة والارشاد ، وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك فى قوله : « أمَّن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون » . وقوله : « واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور » . وقوله : « فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون » . فلما تقطعت أسباب الغرور والكبرياء والادعاء الكاذب لم يبق الا الالتجاء الى رب الدين .

والدين ضرورة لازمة ، لا نستغنى عنها ولا نستطيع الانفصال منها ، ولو لم يكن لنا دين لكان من الواجب علينا أن نوجد ذلك الدين ، فكيف وقد تكفل الله لنا بخير دين ؟ . . الدين ضرورة لازمة حتى يكون رقيبا على الفرد فى حركاته وسكناته ، وفى خطراته وتصرفاته ، يذكر بشرعة الثواب

والعقاب : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ، وشتان بين رقابة القانون ورقابة الدين ، فرقابة القانون ظاهرية قاصرة ، ورقابة الدين شاملة آسرة . . والدين ضرورة لازمة من أجل المصلحة الجماعية ، فان الناس لابد لهم أن يعيشوا مجتمعين ، ولابد لهم من قانون حتى يعيشوا هكذا ، ولابد للقانون من حارس ، ولا تستطاع اقامة حارس مستقل على كل فرد ، فلم يبق الا الدين ليكون هو ذلك الحارس الأمين . . والدين ضرورة لازمة لأنه عزاء وسلوى للنفس البشرية ، فحين يشاهد المرء فى حياته الآلام أو المظالم أو الشقاء ، يكون الدين العزاء والشفاء ، يذكره بعدالة السماء ، وقهر الجبار ، وصدق الجزاء ، وثمرة الصبر والجهاد . . والدين ضرورة لازمة لأنه يرضى هذه النزعة القوية من النفس البشرية الى الخلود ، فالدين يحدثنا عن العالم الأبدى الآخر ؛ وهذا الخلود فى العالم الثانى هو خير عوض عن رغبة المرء الشديدة فى الخلود بهذه الحياة الزائلة . . والدين ضرورة لازمة لأنه يزع النفس عن الآثام ، ويحملها على فضائل الأعمال ، ويوجد بين المتدينين الأصحاء عواطف الخير والرحمة والتعاون والاخاء ؛ ومن هنا قال فولتير : « لو لم يكن الله موجودا لوجب على البشر أن يخترعوه » ! ! . .

ولقد أنكرت الوجودية الدين وأنكرت الله فلماذا ؟ . . انما أنكرته لأن الوجودية ليست مذهبا وليست فكرة ، ولكنها مرض ومظهر من مظاهر التمرد والشذوذ والضيق بأحداث الحياة .. وماذا كانت نتيجة انكار الوجودية للدين ؟ . . كانت النتيجة هى هذه الفوضى التى تغزو العالم ، وتجعل تحلل الوجودية كالأفيون الذى يهلك الأبدان والعقول ، وكان انتشار القلق والسأم والقنوط . . .

لعلهم يقولون — بل لقد قالوا — ان اتساع العلم يؤدى الى انكار الدين ؛ وكذبوا فالأكثرية الساحقة من عباقرة العلماء يقرون الدين ، ويتدينون ويؤمنون ، ويصارحون بأن سعة العلم تؤدى الى الايمان ، وكلما اتسع مجال البحث العلمى الصادق كشف لنا عن عوالم وعوالم وعوالم

(البقية على صفحة ٥٩)

أعلام الإسلام

من روائع البطولة فى الاسلام :

عبد الله بن الزبير

ان الهــلال اذا رأيت نمـوه أيقنت أن سيكون بدرا كاملا
« أبو تمام »

\- ١ -

كما يدل العود الصغير فى التربة الطيبة ، على ما ينظره من نضرة زاهية فى منظره ، وثمرة شهية فى مستقبله ، ثم يتعهده الغارس بالرى والتنمية ، حتى يترعرع من الأيام ساقه ، وتتهادى مع النسيم أوراقه وثماره ، كذلك ينمو الناشىء الصغير رويدا رويدا ، وفى عينيه بريق يومض بالنجابة والذكاء ، وفى فمه لسان ينبىء عن الألمعيــة المتيقظة ، والبديهة الآخذة ، وفى أفعاله مخايل صادقة تسفر عن العزيمة الصادقة والارادة الصلبة ، حتى اذا أسلمه الصبا الغض الى الشباب الحاد تكشفت براعمه المكنونة عن أحسن ماتتكشف عنه معادن الرجال ، من فراسة نظر ، وعمق تجربة ، وهمامة نفس ، وهكذا كان عبد الله بن الزبير فى طفولته هلالا يتكامل ضوؤه فى سطوع ، ويمتد شعاعه فى قوة حتى اذا عبرت به الأيام فى سيرها الدءوب ، تطلعت العيون منه الى بدر متــوج ، يتجلى من أوجه فى أرقى منال ، ويمتنع من عزه فى أعلى سماء !!

أجل ، لقد كانت بوادره العجيبة فى طفولته مثار الدهشة والابداع ، واذا كانت اللمحة السريعة من الطفل الصغير تروع ذوى الفراسة بما ترمز اليه من زكانة وافتتان ، فان كل رائعة ممتازة ، من بدائه عبد الله كانت ترى مألوفة معتادة فى نفوس ذويه ، لمـا توالى عليهم من بدائهه النافذة وتقاطر دونهم من فرائده الفاتنة ، ولاعجب فقد تربى فى بيئة صالحة كريمة ، وتعهدته أمه ذات النطاقين بأسمى ماعرف فى عهده من التربية والتقويم ، ورأى فى

جده العظيم أبى بكر مثالا عاليا للمؤمن الطاهر فى صلابة ايمانه وصدق يقينه ، وصفاء قلبه ، كما شاهد فى والده الزبير شجاعة الواثق بربه ، واخلاص المعتز بدينه ، وفدائية المقاتل عن عقيدته ، أما جدته صفية بنت عبد المطلب ، فقد جمعت أكرم العناصر الطيبة ، وأنفس الأعلاق المدخرة ، واذا درج الطفل هذا المدرج فى حجر هذه الأم الرءوم ، تلك التى نافست الرجال منافسة عارمة فى كبت العواطف ، وقهر النوازع ، كما ورثت عن أبيها الطيب ، وزوجها الكفء أسمى مايتمدح به الناس فى أقوالهم من نقاء الصفحة وبلاء التضحية ... أقول اذا درج الطفل هذا المدرج فى كنف هذه البيئة الأصيلة ، فلا تسل عما تتميز به تربيته القويمة من استشراف للعظائم ، وتطلع الى التحليق ، ورسول الله من وراء ذلك يغذى الشبيبة الاسلامية بتعاليمه الطاهرة ، ويفتح النوافذ الموصدة على أضواء متألقة باهرة ، تصل الى أعماق النفوس فتكتسح الغياهب ، وتجلو الشكوك ، وتنشىء من الشباب المسلم نموذجا رفيعا يشغل الناس بمجده ، ويبهر الدنيا بفتوحه ، وعبد الله أحد هؤلاء الشباب المتوثبين ، ذوى الأمل النازح ، والمطمح البعيد .

ترعرع الأملود الصغير لدن جالد الاسلام الوثنية بسلاح لا يفل من الصبر والشجاعة والايمان ، فهب الطفل الناشىء ليرى فى سنه المبكرة والده الزبير يغدو ويروح الى الحرب ، متقلدا سيفه راكبا جواده ، وتوالت على سمعه الغض أحاديث الوقائع فى بدر وأحد والأحزاب وخيبر ، فأولع بالفروسية والكفاح وتمنى أن يقذف بروحه فى طوفان لجب من السيوف والأرماح ، واذا عجز الواقع أن يتيح للصغير مأمله فى ساحة الحرب ، فانه لينشىء بنفسه ساحة أخرى بالمدينة تطفىء حنينه الملتهب الى ميادين الصيال ، فأخذ يجمع لداته من الغلمان فى عسكرين متقابلين ، ثم تنقض كتيبة على كتيبة ، وان الحماسة العارمة لتدفعهم — فى تمرينهم العملى — الى التمثيل الدقيق فى المسرح العاصف ، لتكون البطولة ناضجة جياشة حين يشتد العود ، وتصلب القناة ، على أن هيامه بالبسالة قد أورثه ثباتا واقتدارا ، فكان فى عهده الناعم يناقش رسول الله ويساجله ، حتى قال عنه « انه ابن أبيه ! ! » وقد بلغه حب الغلام لرسول الله مبلغا ملك عليه جوارحه وتغلغل الى المسارب الدفينة فى أعماقه ، ومن ذلك أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد احتجم ذات ليلة ،

وأعطى الناشىء الصغير دمه الشريف ليهرقه ، فلما ذهب به عبد الله ، شربه عن آخره ، ورجع الى الرسول الكريم يقول : لقد جعلت دمك الطاهر فى مكان يخفى على الناس !! فقال رسول الله ، وقد فطن الى ماسمع : لعلك شربته ، فقال ، نعم ، وكأنى بعروق الغلام وقد سرت بها نشوة البهجة حين اختلطت بدمائها النابضة قطرات من دم محمد ، فاعتقد ابن الزبير أنه أضاف الى كيانه قوة روحية تطهره وتزكيه ! ! وهذا العمل فى ذاته مضافا الى كثير مثله مما اشتهر به المسلمون فى تعلقهم برسول الله برهان رائع على الحب الخارق والايمان النادر ، وبهذا الحب الخالص أمكنهم أن يتخذوا منه على سمو أهدافه ، وعلو آفاقه ، قدوة حسنة ، فرزقوا سعادة العيش فى الدنيا ونعيم الفردوس فى الآخرة ! !

أى شجاعة كانت لهذا الناشىء الصغير ؟ ! فقد مر عمر بن الخطاب ذات يوم بشوارع المدينة ، وبها أطفال يلعبون ويتحدثون فتفرقوا بددا ، حين طلع عليهم صاحب الهيبة المربكة ، وبقى عبد الله فى مكانه لايريم ! ! فقال له عمر : لم لم تذهب مع اخوانك ياغلام ؟ فقال قولته المشهورة : لم أكن مذنبا فأخافك ؟ ولم يكن الطريق ضيقا فأوسعه لك ياأمير المؤمنين ، واذا كان الفاروق من المهابة والجلالة فى مربأ تتطامن دونه أعناق الجبابرة المتمردين ، فان بسالة عبد الله فى مواجهته لأحدى شواهد مستقبله الألاق ، ولك أن تضيف الى بسالته فصاحة حكيمة تنضح بها حكمة الاجابة وسداد المنطق ، ولعل بيانه الرفيع قد مهد له السبل — فيما بعد — الى السيطرة والنفاذ ، فما قاد النفوس الناشزة كالمنطق الساحر يتدفق على لسان بطل مرموق ! !

هاجت نوازع الصبى الناشىء الى الحرب ، وما استطاع أن يرى أباه الزبير يغدو ويروح الى قتال الوثنية فى الفتوح الاسلامية ، وهو قابع بالمدينة يمثل الشجاعة فى أدوار مسرحية ، تجنح الى الأحلام والخيـال ، فصمم على أن يلج الحروب العملية فى طراوة العمر ، ومقتبل الفتاء ، وناقش الفتى وصابر ، وجالد وحاور ، حتى رضى والده أن يصحبه الى قتال الروم يوم اليرموك ، وكان الوالد الشفيق خائفا على نجله الغض ، ثم لم يجد مناصا ، من اردافه معه على جواد واحد !! وقد أعطاه سـيفا باترا ، وانطلق الجواد بفارسيه يقطان الرقاب ، فى رحلة عاصفة مع الأهوال ، دون أن تطير بالصغير الناشىء

رعشة من خوف ، أو خفقة من اضطراب !! وكان منظرا ساحرا أخاذا عجب له المسلمون ، وأقبلوا بعد الموقعة الظافرة ، يهنئون الوالد الكبير بالبطل الصغير ! ! فيامن رأى جوادا واحدا ينطلق بفارسين ، ويتحصن من عدته بسيفين ! ! قبل مشهد اليرموك وما أعقبه من نصر مؤزر وبلاء حميد ! !

مرت الأيام على عبد الله تزيده قوة وثباتا، وتمنحه عزيمة الرجولة وصرامة البطولة حتى عُد فى طليعة الأبطال الكماة ، واصطفاه أمير المؤمنين عثمان ابن عفان ليكون على رأس المدد الناهض الى أفريقيا ، فيسعف عبد الله ابن سعد فى غزواته الشاقة بالمهامه الشاسعة ، والمطارح النائية !! وسار ابن الزبير مع جيشه يحمل عزيمته الماضية ، وايمانه الجرىء ، ولا والله ماركن فى المسير الى راحة أو تلبث ، حتى وصل الى ميدانه ، وانضم الى لواء عبد الله ابن سعد ومضى اليوم الأول وهو يدير الفكر ويجيل الرأى ، فلم يجدخطة ابن سعد فى حربه مغنية فى مثل موقفه ، فهو يقاتل أعداءه صدر النهار ، ثم يرجع بجنوده حتى يحين اليوم التالى ، فيهيىء لعدوه فرصة مديدة كل يوم للاستعداد والتأهب !! وهذا مايبطىء بالنصر الى مدى تتحرق له النفوس، فأنكر الشاب الوافد خطة قائده ، وأشار بتقسيم الجيش الى فريقين ، فريق يقاتل عدوه صدر النهار ثم يجنح الى الراحة المتيقظة ذات الحذر البالغ ، والتأهب السريع ، وفريق ثان يتعقب العدو فى الظهيرة فينهك قوته ويفل عضده ويبدد جمعه !! وقد أخذ القائد برأى صاحبه ، وتزعم عبد الله الفريق الثانى ثم هجم على العدو هجوما أفزعه وشرده ، وضمن للمسلمين النصر فى مدى قصير ، ولقد كان « جرجير » قائد الجيش المنهزم فى قوة سابغة من دروعه وسيوفه ، وشكيمة مرهبة من حاشيته وحرسه ! وكانت له بالميدان زأرات صارخة الدوى عالية الرنين فوجه عبد الله همه الى غريمه ، ورأى فى مصرعه خورا فى نفوس أجناده ، وهزيمة يتزلزل لها الكيان المناوىء تزلزلا مبيدا ، ومن ثم فقد جمع أطراف قوته ، واختار كماة كتيبته وعمد الى القلب بين الميسرة والميمنة ، فصاول الموت فى سجال جنونى رهيب ، لم يهدأ اعصاره الجارف حتى سقطت رأس « جرجير » بضربة من ذبابة عبد الله ، فكبر المسلمون تكبيرا دويا ، وغنموا غنائم طائلة يبالغ فيها الكاتبون مبالغة ترتكز من الواقع على أساس متين !! ومن الرائع المدهش أن عبد الله

ابن سعد قد عرض قيادة الجيش العامة على ابن الزبير ، وبذلك يصبح والى افريقية الظافر ، ولـكن الإخلاص لمهمته يدفعه الى الرفض الحازم ، مؤثرا أن يرجع بكتيبته الى المدينة بعد أن أدى مهمته الحربية ! ! ليضعه الخليفة حيث يشاء ! !

لقد كان اختيار عثمان موفقا كل التوفيق ، فهو اذ أرسل عبدالله لم يرسل قوة تمد القوة بالسلاح وحده ! ! فلو اقتصر الأمر على الصيال المتقطع مابلغ النصر مبلغه الأخاذ ، ولكنه بعث مع القوة فكرا نهاضا واثبا ، يفعل بالخطة المدروسة ، والحيلة المحبوكة ، مالا تفعله السيوف المنهمرة ، والرماح المتدافقة ! وقد عجلت هذه الخطة الحكيمة بالفوز الساحق ، فحفظت مئات الأرواح ، واختصرت الزمن اختصارا يفسح للراحة مهادا وثيرا ، ويضاعف الغنيمة أضعافا مضاعفة ، فيالله للعقل المدبر ، والنظر الحصيف ! !

دقت بشائر النصر فى كل مكان ، وطار ابن الزبير الى عثمان بالمدينـة ، ليخبره بالظفر المؤزر ، ويعيد على سمعه ماشاهد وما صنع ، وقد استمع أمير المؤمنين الى قائده الشاب فترنحت أعطافه تيها بحسن اختيـاره ، وباهر نتيجته ، وأخذت بلاغة الفتى الشاب مأخذها من نفس الخليفة المعجب فأحب أن يقوم ابن الزبير بنفسه ، فيغرد بفصاحته المؤثرة على منبر المدينة ، ويردد نغمات النصر فى خطبة عميقة الصدى ، عذبة الايقاع ، ولكن ! ربما تهيب الفتى الباسل مقامه فى الذروة بين الناس ، فتلجلج الحديث فى شفتيه ، وانعقد لسانه المتدفق عن الفيضان ! ! ذلك هاجس هجس فى نفس عثمان ، فسأل فتاه : أرأيت لو جعلتك تتكلم فى المسجد مع الناس عن غزاتك الميمونة ، أكنت تجيد ؟ فجاءه الرد مؤيدا بدليـل من الواقع ، وحجة من المنطق ، اذ يقول عبد الله : ياأمير المؤمنين : أنا أهيب لك منى لهم ! ! وفعل الرد المقنع فعله فى نفس الخليفة ، فأذن لابن الزبير أن يخطب الناس فى يوم أغر محجل ، فقدم الكلام بنموذج رائع من البلاغة ، تحفظه كتب الأدب والتاريخ ، ثم عمد الى موضوعه ، فقال : « أيها الناس رحمكم الله ، انا خرجنا للوجه الذى علمتم ، فكنا مع وال حافظ حفظ وصية أمير المؤمنين ، فلم نزل على أحسن حالة من ربنا حتى انتهينا الى أفريقية فنزل منها حيث يسمعون صهيل الخيل ورغاء الأبل ، وقعقعة السلاح ، فأقمنا أياما نجم كراعنا ، ونصلح سلاحنا ،

ثم دعوناهم الى الاسلام والدخول فيه ، فأبعدوا منه ، وسألناهم الجزية عن صغار أو الصلح فكانت هـذه أبعد ، فأقمنا عليهم ثلاث عشرة ليلة تختلف رسلنا اليهم ، فلما يئس منهم نهضنا الى عدونا ، وقاتلناهم أشد القتال يومنا ذلك ، وصبر فيه الفريقان فكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرة ، واستشهد الله رجالا من المسلمين ، فبتنا وباتوا ، وللمسلمين دوى بالقرآن كدوى النحل ، وبات المشركون فى خمورهم وملاعبهم ، فلما أصبحنا أخذنا مصافنا التى كنا عليها بالأمس ، فزحف بعضنا على بعض ، فأفرغ الله علينـا صبره ، وأنزل علينا نصره ففتحناها من آخر النهار ، وأصبنا غنائم كثيرة ، وفيئا واسعا » ثم سكت فضج المسلمون بالابتهاج ، وقام الزبير فعانق ولده وقبله ، فقد عرفه قبل ذلك فارسا بطلا ، وهاهو ذا يعرفه خطيبا بليغا ، يمتلك زمام القول ، ويتصرف فى أفانين الكلام ، وقد كان عبد الله موفقا حقا ، فقد أعذر الأعداء اذ عرض عليهم الاسلام أو الجزية ، كما صور جنود الله فى ايمانهم السابغ ، واعتصامهم بالقرآن تصويرا يدفع الى التقدير والاعجاب ، ويرشد عن السر الهائل فى هذا الانتصار العظيم الذى أحرزته الجيوش الاسلامية فى مختلف الميادين ! !

أسرعت الحوادث سيرها ، فثارت الثائرة على عثمان رضى الله عنه ، ووقف عبد الله أمام الثائرين !! يدافع الجموع ، ويذود عن عرين الشهيد المظلوم وكان معه الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وفريق ممن صدقوا الله وعده ، فما تركوا جهدا الا بذلوه ، وقد أصيب الحسن وابن الزبير وكرت الدائرة بما لايشتهون !! فصعدت روح الشهيد الى بارئها الرحيم ، وقامت الفتنة الهوجاء ، فاندفع المغرضون والغافلون ينقمون من الامام على ذنبا لم يقترفه !! وكان عبـد الله فى طليعـة من قادوا المعركة يوم الجمل !! فألبوا الجموع على على !! ونحن هنا نكتب تاريخا واقعا نستلهمه العبرة والعظة ، ولن يمنعنا الاعجاب بعبد الله أن نسجل عليه ماقد تورط فيه من خطأ ظالم ، حين ألب الجموع على الامام العادل كرم الله وجهه ! ! ومثله فى حصـافته النافذة وخبرته الدارسة لا يجهل مكان الامام فى قومه ، وبلاء أبى الحسن فى دينه ، فقد كان على فتى الوقائع المشرقة فى بدر والأحزاب وخيبر ، وهو بدينه المتين ، وعلمه الغزير ، وشجاعته النادرة ، أحق الناس بالخلافة فى أمد

حائر تكالبت به الأطماع، وتدافعت الأهواء تعلن عن رغائبها الدفينة، وآمالها البعيدة !! وصاحب الحق أبلج مشتهر، لايجهل مكانه، ولا تجحد عوارفه، فاذا اندفع عبد الله الى مناهضته المخطئة، فقد اندفع اندفاعا لاخير للاسلام فيه، والنفس الانسانية لاتعدم فترات تتغلب فيها الوساوس فتحجب اليقين لحظات عن العيون، ونحن اذ نلوم ابن الزبير على موقفه هذا، انما نقرر أن الكمال المطلق منـال لم يتح لغير من اصطفاهم الله من الأنبياء والمرسلين، وأن العظماء من قادة الرأى وساسـة الأمر، مناط الأسـوة فى محامدهم، ومجال العبرة فى تخلفهم، فاذا كنا نقتدى بهم فى بعد الهمة وسموق المدى، فاننا نعتبر بأخطائهم فنتحاشى أن نتورط فيما اندفعوا اليه من جموح، لاسيما اذا أدرك العظيم خطأه، فرجع الى نفسه باللوم والتثريب، فهـو يعترف بشططه قبل أن يأخذه عليه المنصفون !

والعجيب أن الزبير بن العوام والد عبد الله، قد نفض يده أولا من مقاتلة على، ولكن نجله الثائر قد دفعه الى القتال دفعا لاهوادة فيه، يقول الزبير رحمه الله : (ما شهدت موقفا فى الشرك ولا فى الاسلام الا ولى فيـه موقف وبصيرة !! غير هذا الموطن، فانه لارأى لى فيه) وسأله رجل عن موقفه، فقال : « مغلوب مغلوب !! يغلبنى ابنى، ويطلبنى ذنبى !! » وأنت تلمس لاذع الأسف وبالع الندم فى عبارته الحزينة، وقد أدرك الامام كرم الله وجهه موقف الوالد، فقال : « مازال الزبير رجلا منا — أهل البيت — حتى أدركه ابنه عبد الله : فلفته عنا » ! ! والزبير من أهل البيت حقا، فأمه صفية بنت عبد المطلب بن هاشم فهو من على قريب قريب ! !

ومهما يكن من شىء فقد انتهت الثورة، وأدرك عبد الله شروده النافر، فاعتزل الخلافات السياسية حقبة طويلة، ولزم بيته يصلى ويتعبد مستغفرا، وجعل يخرج فى الكتائب الغازية حرصا على المثوبة والجهاد، وكان خشوعه فى صلاته ذائعا مشهورا، حتى قال عمرو بن دينار : مارأيت مصليا أحسن صلاة من ابن الزبير.

« البقية فى العدد القادم »

محمد رجب البيومى

من معجزات العبقرية :

جلال الدين السيوطى

رجعت الى كتاب (المزهر فى علوم اللغة وأنواعها) للشيخ جلال الدين السيوطى ، واذ بنظرى يقع اتفاقا — على جملة لا أتذكر أننى قرأتها سابقا فى هذا المرجع العربى المتين ، هى :

« . . . غير أن هذا المجموع لم يسبقنى اليه سابق ، ولا طرق سبيله قبلى طارق . . » .

وبعد أن راجعت ما أريد مراجعته فى هذا المرجع ، رأيت عندى دافعا نفسيا الى مراجعة ترجمة الشيخ جلال الدين السيوطى صاحب هذا الكتاب وقد كنت قرأتها منذ زمان — ولما أن أخذت فى الاطلاع عليها ، استوقفتنى فى كثير من فقراتها استيقاف طرب ملأ جوانب نفسى ، واعجاب بعبقرية هذا العالم الجليل :

(١) كيف بك وأنت أمام هذه الفقرة التى أعيد ذكرها طربا واعجابا .. غير أن هذا المجموع لم يسبقنى اليه سابق ، ولا طرق سبيله قبلى طارق ..

(٢) ثم كيف بك أيضا حين تقرأ قوله : « . . وقد بلغت مؤلفاتى (للآن) ثلثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه . . » .

ثلثمائة كتاب يؤلفها (للآن) هذا العبقرى الجبار ، ليس فيها هزيل ، ولا مريض ، ولا منبوذ ، وانه اذا كان فيها شىء من هؤلاء فانه قد تولى بنفسه غسله والرجوع عنه ، ولم يوصله اليك ، ولم يوصل اليك الا هذه الثلثمائة التى صحت عنده وارتضاها ، وقد تكون قد أربت على هذا العدد بعد ظرف الزمان الذى استعمله وهو كلمة (الآن) التى لا يمكن تحديدها بأطراف وقت معين .

(٣) ثم كيف بك ثالثا فى هذه الفقرات ، وهذا العجب العجاب قوله :

« . . وقد كملت عندى الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى . . ولو شئت أن أكتب فى كل مسـألة مصنفا ، بأقوالها ، وأدلتها النقلية ، والقياسـية ، ومداركها ، ونقوضها ، وأجوبتها ، والموازنة بين اختـلاف المذاهب فيها ، لقدرت على ذلك من فضـل الله ، لا بحولى ولا بقوتى ، فلا حول ولا قوة الا بالله . . » .

هذا بعض ما تحدث به الامام جلال الدين السيوطى عن نفسـه ، وعن درجة اجتهاده ومعارفه التى تقاذفنى موجها حتى خفت على أعصابى الانهيار ثم هو يلحق بذلك ــ قوله مقسـما درجات علومه ومحصـوله العلمى الى درجات . قال :

« ولما حججت شربت من ماء زمزم لأمور ، منها : أن أصـل فى الفقه الى رتبة الشيخ سراج الدين البلقينى ، وفى الحديث الى رتبة الحافظ بن حجر ، ورزقت التبحر فى سبعة علوم : التفسـير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعانى والبيان والبديع ، على طريقة العرب والبلغاء ، لا على طريقة العجم وأهل الفلسـفة (لعله يريد بذلك عبـد القاهر الجرجانى صاحب دلائل الاعجاز) والذى أعتقده ان الذى وصلت اليه من هذه العلوم السبعة لم يصل اليه ولا وقف عليه أحد من أشياخى فضـلا عمن دونهم . وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه ، بل ان شيخى فيه أوسع نظرا ، وأطول باعا ، ودون هذه السبعة فى المعرفة أصول الفقه والجدل والتصريف ، ودونها الانشاء ، والتوسل والفرائض ، ودونها القراءات ، . . وأما علم الحساب فهو أعسر شىء على ، وأبعده عن ذهنى . . » .

وبعد أفرأيت ما كتبه عن نفسه ذلك الفحل النحرير الذى صدقك القول فما يجيد وما لا يجيـد من العلوم ، وما بلغت به ملكاته فيهـا الى أرفع الدرجات ، وما هبطت به الى أسفل الدركات ؟ ! اننى اذا لم تتأثر مشاعرى جميعا هذا التأثر البالغ بهذه القوة العلمية التى جمعها بين جنبيه فرد واحد ــ لاختصمت نفسى بأن بينى وبين تقدير معجزات الصـفاء ، وخوارق آيات

الذكاء ، وشذوذ الملكات ، ونوادر العبقريات ـ خصومة قوية ، لا أرضاها لنفسى والحمد لله .

الثلثمائة كتاب التى ألفها الامام السيوطى (للآن) ، وما هضمه عقله الجبار من شتاها ومتفرقها ـ لهى جواهر ، وضعها على أديم القراطيس ، فأرسلها لأهل العلم تضىء لهم سبل تحصيل العلوم ، ومن لم يكن فى مكتبته الخاصة الكثير منها ، أو الذى لم يطلع منها على شىء ، فأعتقد أنه ناقص المكتبة ، وناقص الثقافة كذلك .

* * *

ألهانى حديث العبقرية عن أن أرتب هذه الترجمة الموجزة : فأبدأ بما يبدأ به الناس عادة فى السير والتراجم من مولد ومنبت وأب ونشأة ، ولكن صفاء الشيخ وندرة وجود مثله بين الأعلام ، وما كان له من ذكاء غريب ، واقتدار عجيب هو الذى سار بى فى هذا السبيل .

وعلى ذكر العبقرية والعباقرة أقرر أن تحليل عبقرية الشيخ السيوطى بحاجة الى كتاب لا الى مقال ، ولو قدر لى أن أكون مؤلف هذا الكتاب لكنت من أسعد الكتاب حظا .

هو الشيخ عبد الرحمن بن الكمال ، أبو بكر محمد بن سابق . . ابن الشيخ همام الدين الخضيرى الأسيوطى ، كان أبوه من جلة الفقهاء الشافعية وأوفرهم حظا فى خدمة مذهب الامام الشافعى . وقد ولد فى مستهل رجب سنة ٨٤٩ هـ . وقد توفى والده وهو فى مستهل طفولته فنشأ يتيما ، وشرع فى الاشتغال بالعلم سنة ٨٦٤ هـ ، وأعتقد أنك لست فى حاجة بعد ما تقدم من آيات عبقريته الى أن أقول لك انه كان من نوادر الزمان فى الحفظ والذكاء وسرعة الفهم والتحصيل الذى لا تحده حدود ، حتى أن مشايخه أجازوه تدريس العربية سنة ٨٦٦ هـ ، وقد ابتدأ يؤلف أيضا فى العام المذكور ، وكان استهلال تأليفه شرح الاستعاذة والبسملة ، وقد عرضه على أحد أشياخه ، الشيخ عز الدين البلقينى فكتب عليه تقريرا لاعجابه به ،

ثم أخذ يؤلف على توالى الأيام فألف شرحا على ألفيــة ابن مالك ، وأخذ العلماء يشهدون له واحدا بعد واحد بالتقدم الغريب فى التحصيل ــ بكتابة تقاريظ لكل مؤلفاته ، وتوفى رحمه الله سنة ٩١١ هـ .

* * *

وأختم هذا الحديث بلطيفة علمية وقعت بين الشيخ وبين أحد أشياخه : الشيخ تقى الدين الشبلى . قال الشيخ السيوطى :

« . . ولزمت فى العربية والحديث شيخنا الامام العلامة تقى الدين الشبلى الحنفى .. وكتب لى تقريظا على شرح ألفية بن مالك وعلى جمع الجوامع فى العربية ورجع الى قولى مجردا فى حديث : فانه أورد فى حاشيته على الشفاء حديث أبى الجمراء فى الاسراء ، وعزاه الى تخريج ابن ماجه ، فاحتجت الى ايراده بسنده فكشفت عن ابن ماجه فى مظنته فلم أجده ، فمررت على الكتاب كله فلم أجده ، فاتهمت نظرى ومررت عليه ثانية فلم أجده ، فعدت ثالثة فلم أجده ، ورأيته فى معجم الصحابة لابن قانع ، فجئت الى الشيخ وأخبرته ، فبمجرد ما سمع منى ذلك أخذ نسـخته ، وأخذ القلم ، فضرب على لفظ ابن ماجه ، وألحق ابن قانع فى الحاشية ، فأعظمت ذلك وهبته لعظم منزلة الشيخ فى قلبى ، . وقلت ألا تصبرون لعلكم تراجعون ؟ فقال : لا ، انما قلدت فى قولى ابن ماجه ــ البرهان الحلبى . . » .

فهل ترى أن هناك أمانة فى العلم ومناقلة الحديث أكثر مما وقع بين السيوطى وشيخه ؟ وهل رأيت كيف بلغت الثقة بالشيخ السيوطى من شيخه ــ الى حد أن الشيخ يضرب بقلمه على مادون وكتب ، ولماذا ؟ لأن الشيخ السيوطى لم يعثر لراوى الحديث على خبر . وانما روايته هو عالم آخر .

رحم الله الامام السيوطى بقدر ما أحسن الى المكتبة العربية من درر ، وبقدر ما أفاد العلم والعلماء .

حسن الشيخة

من القـــديم

الحســد :

(ا) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ، ولا تجسسوا ، ولاتنافسوا ، ولاتحاسدوا ، ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً .

(ب) وقال عليه الصلاة والسلام :

إياكم والحسد . فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . أو قال العشب .

(ج) وقال صلى الله عليه وسلم :

دبَّ إليكم داء الأمم قبلـكم : الحسد والبغضاء هى الحالقة ، لا أقول تحلِقُ الشّعر ، ولـكن تحلق الدين ، والذى نفسى بيده ، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا ، ألا أنبئـكم بما يُثْبِت ذاكم لـكم ؟ أفشوا السلام بينـكم .

(د) قال على كرم الله وجهه : لا راحة لحسود ، ولا إخاء لملول ، ولا محب لسيء الخلق .

(هـ) وقال الحسن : مارأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد ، نفَس دائم ، وحزن لازم ، وغم لا ينفد .

(و) قال الشاعر :

كل العداوة قد ترجى إباتنها   إلا عداوة من عاداك من حسد

(ز) ومن كلام ابن المقفع :

الحاسد لا يزال زارياً على نعمة الله ، ولا يجد لها مزالا ، ومكدراً على نفسه مابه من النعمة ، فلا يجد لها طعما ، ولا يزال ساخطاً على من لا يرضاه ، ومتسخطاً لما لا ينال ، فهو مكظوم هلوع جزوع ظالم ، أشبه شيء بمظلوم محروم الطلبة ، منغص العيشة ، دائم التسخط ، لا بما قسم له يقنع ، ولا على مالم يقسم له يغلب ، والمحسود يتقلب فى فضل نعم الله مباشراً للسرور ، ممهلا فيه إلى مدة لا يقدر الناس لها على قطع ولا انتقاص ، ولو صبر الحاسد على ما به لكان خيراً له ، لأنه كلما أراد أن يطفئ نور الله أعلاه ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون .

شر الناس :

قال صلى الله عليه وسلم : ألا أنبئكم بشر الناس ؟

قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : من أكل وحده ، ومنع رفده ، وجلد عبده ، ثم قال : ألا أنبئكم بشر من ذلك ؟

قالوا : بلى يارسول الله .

قال : من يبغض الناس ويبغضونه .

من أين لك هذا

بلغ عبد الملك أن عاملا من عماله قبل هدية فأمر بإشخاصه إليه ، فلما دخل عليه قال له : أقبلت هدية منذ وليتك ؟ قال يا أمير المؤمنين ، بلادك عامرة ، وخراجك موفور ، ورعيتك على أفضل حال ، قال : أجب فيما سألتك عنه ، أقبلت هدية منذ وليتك ؟ قال : نعم . فقال له : لئن كنت قبلت ولم تعوض إنك للئيم ، ولئن أنلت مهديك لا من مالك أو استكفيته ما لم يكن يُستكفاه ، إنك لجائر خائن ، ولئن كان مذهبك أن تعوض المهدى إليك من مالك وقبلت ما اتهمَك به عند من استكفاك وبَسط لسانَ عائبك وأطمع فيك أهل عملك ، إنك لجاهل ، وما فيمن أتى أمراً لم يخلُ فيه من دناءة أو خيانة أو جهل مصطنع ، ثم نحاه عن عمله .

م ج

الخطابة

الجهاد والمجاهدون

الحمد لله الذى فرض الجهاد على المؤمنين وجعله ذروة سنام أمور هذا الدين ، وأشهد أن لااله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله سيد المجاهدين وقائد الغر المحجلين علمنا أن الجهاد باب من أبواب الجنة ينجى به الله تبارك وتعالى من الهم والغم .

اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين منهاجه الى يوم الدين .

أما بعد فيقول الله تبارك وتعالى (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون باللهورسوله وتجاهدون فى سبيل اللهبأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) .

عباد الله . ان أفضل أعمال البر بعد الايمان بالله عز وجل أن يجاهد المرء فى سبيل الله فما من عمل فى هذه الدنيا يعدل مثوبته ويسمو الى شرف منزلته ولقد جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله دلنى على عمل يعدل الجهاد فقال عليه السلام لاأجده ثم قال للرجل هل تستطيع — اذا خرج المجاهد — أن تدخل مسجدك فتقوم الليل ولا تفتر وتصوم ولا تفطر ؟ فقال الرجل متعجبا ومن يستطيع ذلك يارسول الله .. ولهذا يقول عليه السلام لمعاذ بن جبل رضى الله عنه يامعاذ ان شئت حدثتك بذروة سنام هذا الأمر فقال معاذ بلى يارسول الله حدثنى فقال عليه السلام ذروة سنام هذا الأمر الجهاد فى سبل الله .

عباد الله . ان أحدنا اذا تصدق بقى له الكثير من ماله واذا تكلم كلمة الحق قالها وهو آمن فى سربه واذا أسهم فى عمل من الأعمال بعلمه أو وقته أوجهده أسهم وله بعد ذلك الكثير من الوقت والجهد ، أما المجاهد فانه اذا خرج

فى سبيل الله فقد خرج عن ماله كله لا يدرى أيعود اليه أو لا يعود ، وخرج عن زوجه وأولاده لا يعلم أيراهم بعد ذلك أو لا يراهم ، وخرج عن نفسه ودمه وحياته لله لا يدرى أيحيا بعـد ذلك أم تكون الخاتمة فانه خرج لله عن كل مايمكن أن يحرص عليه انسان فى هذه الدنيا وذلك أمر خطير لا يسمو اليه الا ذوو الهمم العالية والنفـوس العظيمة التى تعلقت بحقائق المثـل العليا وشرف العزة والكرامة أولئك هم الذين باعوا دنياهم لله فباعهم بها كرامة سابغة وجنة عرضها السموات والأرض وذلك قوله سبحانه (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) .

عباد الله : لقد أعد الله للشهداء الذين يقتلون فى سبيله من المثوبة والكرامة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لأنهم خرجوا عن كل محبوباتهم سعيا الى مرضاته ، وفيما بيننا الآن أقوام خرجوا لمثل ما خرج له الشهداء ولكن لم يستشهدوا ، وقاتلوا فى سبيل الله ولكن لم يقتلوا ، كتب الله لهم أن يعودوا الينا متوجين بشرف البطولة ليكونوا بيننا أمثلة حية للايمان الحى ، ورمزا قائما لشرف الجهاد فى سبيل الله ، كتب الله لهم أن يعودوا الينا من حرب فلسطين العزيزة وعلى وجوههم وسائر أعضائهم آثار ما أصابهم من جراحات العدو فيالها من آثار تتحدث وهى صامتة وتنطق بما كان لأصحابها من شرف وبطولة ومجد فى عالم الجهاد والبذل والفداء . .

عباد الله : اذا لقيتم واحدا من هؤلاء فنظرتم الى أثر جرح من جراحه فقفوا له اجلالا وخشية فانما ترون عليه طابع الشهادة وشهادة من الله بأنه أقدم على بذل نفسه فى سبيله وفى هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (من جرح جراحة فى سبيل الله ختم له بخاتم الشهداء له نور يوم القيامة يعرفه بها الأولون والآخرون ، يقولون : فلان عليه طابع الشهداء) .

فاذا كانت الأمم الراقية تمنح رجالها العاملين أوسمة وشارات ونياشين تقديرا لفضلهم واشادة بما قدموا لأمتهم فان أرفع من تلك الأوسمة جميعا

جراحة أو عاهة يلقاك بها صاحبها وقد نزلت به فى ساحات الشرف والمجد ، شرف القتال فى سبيل الله .

وقد قام بيننا اليوم من يدعو الى تكريم هؤلاء المجاهدين الذين شوهتهم الحرب وتركت عليهم آثار المجد والبطولة أو طبعت عليهم بطابع الصدق والشهادة فلنبادر جميعا الى هذه الدعوة ولنكرم أنفسنا بتكريم هؤلاء الشهداء الأبطال .

عباد الله ماذا لهؤلاء عندنا ، بعد أن فقد أحدهم عينه أو عينيه فغدا لا يبصر .

وماذا لهم عندنا بعد أن ترك أحدهم فى الميدان ذراعه أو ذراعيه وغدا غير قادر على العمل .

ماذا لهم عندنا بعد أن ذهب أحدهم الى الميدان تحمله رجلاه فعاد مقعدا لا قدرة له على مسير .

ان كل واحد من هؤلاء يحمل عنوان جهاده ، عنوان شجاعته واقباله ، عنوان بذله وفدائه ، بل يحمل عنوان الايثار ، اذ آثرك على نفسه فكنت فى عافية وهو فى نصب وجهد ، وكنت فى وفرة وبهجة ، وهو يجود بعينه أو بذراعه أو بساقه من أجل الاسلام والمسلمين .

فاتقوا الله عباد الله واستجيبوا لتكريم هؤلاء الأبطال فانكم انما تؤدون اليهم بعض حقهم وتشركونهم بعض ثوابهم وتبعثون فى هذه الأمة معانى البطولة وحوافز الهمة والجهاد من جديد .

أسأل الله سبحانه أن يحيى نفوسنا بمعرفته ، وأن ينهض هممنا بروح الايمان به ، وأن يبعث فى أمتنا عزمات الجهاد فى سبيله انه سميع مجيب .

قال عليه الصلاة والسلام (من جرح جرحا فى سبيل الله أو نكب نكبة فى أحد أعضائه فانها تجىء يوم القيامة كأغزر ما كانت لونها لون الزعفران وريحها ريح المسك عليها طابع الشهداء) .

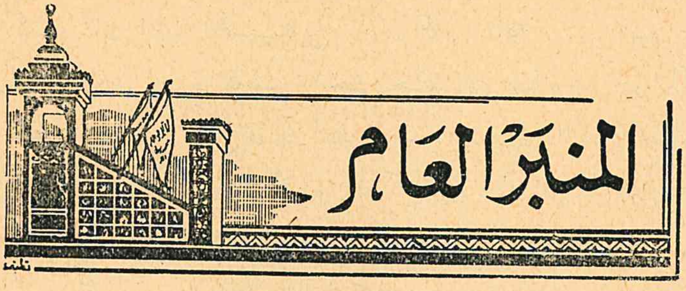

آراء حرة حول عصمة الأنبياء :

شعيب عليه السلام

ذكرت قصة شعيب مبسوطة فى ثلاثة مواضع من القرآن الكريم : فى سورة الأعراف ، وفى سورة هود ، وفى سورة الشعراء . أما الشيخ الذى ذكر فى سورة القصص والد المرأتين اللتين تزوج موسى احداهما ، فقيل هو شعيب ، وقيل هو كاهن من كهان مدين ، وقيل رجل قريب أو تابع لشعيب. وشعيب من ذرية ابراهيم عليهما السلام ، قيل هو شعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين بن ابراهيم الخليل عليه السلام . فشعيب ليس من أولاد اسرائيل وهو يعقوب أو اسحاق بل من أولاد مدين . ومدين اسم قبيلة شعيب التى أرسل اليها واسم لقريته أيضا التى بعث فيها سميت باسم مدين بن ابراهيم ، وقيل ان شعيبا هو ابن ميعون بن عنفاش بن مدين بن ابراهيم الخليل ، وأيا ما كان فشعيب ليس اسرائيليا والقصص الثلاث التى ذكرت فى القرآن الكريم تدل على أن قوم شعيب كانوا مشركين ، وقد أمرهم أن يعبدوا الله وحده ، وكانوا يطففون الكيل والميزان ، وكانوا يبخسون الناس أشياءهم وهذا يدل على أنهم كانوا تجارا وأصحاب ثروة ومال .

وهذه قصة شعيب عليه السلام فى سورة الأعراف . قال الله تعالى : « والى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم

وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين . قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها ومايكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء ربنا وسع ربنا كل شىء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين . فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين » .

ويقول الله عز وجل فى سورة هود : « والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان انى أراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ . قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما كان يعبد آباؤنا أو نفعل فى أموالنا ما نشاء انك لأنت الحليم الرشيد . قال يا قوم أرأيت ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وماأريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب وياقوم لايجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ماأصاب قوم نوح أو قوم هود أوقوم صالح وماقوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم ودود . قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وماأنت علينا بعزيز . قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ان ربى بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا انى معكم رقيب . ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت

الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود » .

ويقول عز من قائل فى سورة الشعراء : « كذب أصحاب الأيكة المرسلين . اذ قال لهم شعيب ألا تتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين . أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقساس المستقيم . ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين . قالوا انما أنت من المسحرين . وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين . قال ربى أعلم بما تعملون . فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم . ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وان ربك لهو العزيز الرحيم » .

هذه قصة شعيب مع قومه مدين ذكرت فى موضعين من القرآن الكريم: فى سورة الأعراف ، وفى سورة هود ، ومع قومه أصحاب الأيكة ، وقد ذكرت فى سورة الشعراء .

والأيكة غيضة بها ناعم الشجر قرب مدين شمال الحجاز قرب الشام .

وقد وصف القرآن الكريم شعيبا فى قصة مدين بالأخوة ولم يصفه فى قصة أصحاب الأيكة بذلك . لأن شعيبا كان من مدين ولم يكن من أصحاب الأيكة ، وانما أرسل اليهم لقرب منازلهم من مدين ،ولذلك كان وضعهم متفقا مع مدين فكلاهما عبدة أوثان وكلاهما ينقص الكيل والميزان وكلاهما يبخس الناس أشياءهم . فهو فى سورة الأعراف يقول لقومه : ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره . وكذلك يقول فى سورة هود . وفى سورة الشعراء يقول : «ألا تتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين » . وقارىء قصة الشعراء يطالعه فى بدء هذه القصة قول الله تعالى : « كذب أصحاب الأيكة المرسلين » . فيتساءل كيف يكون ذلك وهم لم يرسل لهم الا شعيب ؟ والجواب على هذا التساؤل أن تكذيبهم لشعيب تكذيب لكل الرسل لأن الرسل اخوة ورسالة

الرسل واحدة فى أساسها وهو التوحيد ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسـله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » .

ويستوقف النظر فى قصة شعيب أنه فى سورة الأعراف قال لقومه : قد جاءتكم بينة من ربكم . فما هى هذه البينة ؟ ان القرآن الكريم لم يذكرهذه البينة صراحة . فهـل البينة هى شعيب نفســه أو ما جاء به من الهدى فقد جاءهم يبين لهم الحق من الباطل ، وقد أطلقت البينة فى القرآن على المصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى آيات الكتاب الكريم قال تعالى : « لم يكن الذين كفروا من أهل والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسـولا من الله يتلو صـحفا مطهرة فيها كتب قيمة وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة » .

ويرتب شعيب على ذلك ــ بعد أن أمرهم بالتوحيد ــ الأمر بايفاء الكيل والميزان ونهيه عن بخس الناس أشياءهم وعن الفساد فى الأرض وعن القعود بكل طريق يتوعدون المهتدين بالأذى ويصـدونهم عن سبيل الله المستقيم ليسلكوا الطريق المعوج ويذكرهم بأنهم كانوا قلة فكثرهم ويوجه نظرهم الى عاقبة المفسدين من قبلهم كقوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو قوم لوط وما هم منهم ببعيـد . وواضح مما تقدم أن قوم شعيب كانوا تجارا مطففين ينقصون الكيل والميزان اذا كالوا الناس وأنهم كانوا يبخسون الناس أشياءهم وهـذا هو الفساد المبين لأنه أكل لأموال الناس بالباطل . وطبعى أن يستجيب لدعوة شعيب فريق وأن يخرج عليها فريق آخر فيفوض أمره لله صابرا حتى يحكم الله بين الفريقين ، ثم تدور المناقشة بينه وبين المستكبرين الذين رفضوا دعوته فيهددونه بالطرد مع من آمن به ان لم يعودوا فى ملتهم ويقابلهم بالحلم فيرد عليهم ردا جميلا : « قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها » الخ . ويقول الذين كفروا لمن رغبوا فى الايمان : « لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون » . وينزل الله العذاب بالمستكبرين الكافرين فتأخذهم الرجفة ويهلكون وينجو شعيب ومن آمن معه ويلتفت

شعيب خلفه وينادى هؤلاء الهالكين : « يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين » . يعنى أنه لايحزن عليهم بعد أن استحبوا العمى على الهدى واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة والعذاب بالمغفرة .

وفى سورة هود يأمر شعيب قومه بما أمرهم به فى سورة الأعراف ويذكرهم بأن ما عند الله خير لهم فهو الباقى ، ويردون عليه متهكمين بأنهم لا يتركون ما كان عليه آباؤهم من عبادة الأصنام وأنهم أحرار فى أموالهم ، ويتهمونه بالحمق والسفه لتدخله فيما يدعون أنه من شئونهم الخاصة فى أسلوب لاذع ساخر فيصفونه بأنه الحليم الرشيد وهم يريدون الضد ، ويرد عليهم الرد الذى يناسب كرامة الرسول وحلمه الواقعى فيقول انه على هدى من ربه وانه فى يسر وليس فى حاجة الى أجر فأجره على الله كما جاء فى سورة الشعراء ، وانه يريد الاصلاح ويذكرهم بهلاك من قبلهم ويأمرهم بالاستغفار ، وتأخذهم العزة بالاثم فيقولون : « يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز . قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ان ربى بما تعملون محيط » . وهكذا يخشون الناس ولا يخشون الله ويعيرهم بذلك ويهددهم بالعذاب ، ويقع بهم العذاب فتأخذهم الصيحة فيهلكون . وقد ذكرت قصة الأعراف أن عذابهم كان بالرجفة ومن ذلك نعلم أن الصيحة نزلت بهم فأخذتهم الرجفة فهلكوا .

أما أصحاب الأيكة الذين ذكرت قصتهم فى سورة الشعراء فكانوا أشد عتوا وأكثر استكبارا وعنتا ، فقد اتهموا شعيبا بأنه أصابه شىء من السحر فأصبح لا يعى ولا يعقل ويهونون من أمره بأنه بشر وأنهم يظنونه كاذبا ويتحدونه فيطلبون منه أن ينزل عليهم كسفا من السماء ، فينزل عليهم عذاب يوم الظلة . فقد روى أن الله سلط عليهم القيظ الشديد أياما فخرجوا الى البادية فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها علها تمطرهم ما ينقذهم من الحر الذى أخذ بأنفاسهم فاذا هى تمطرهم نارا تحرقهم . وهكذا يهلك الله الظالمين وينجى الله المؤمنين .

وذكرت قصة شعيب أيضا فى سـورة العنكبوت فى ايجاز قال تعالى : « والى مدين أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجو اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » .

وبعد : فقد استعرضنا قصة شعيب فى هذه السور الكريمة فلم نجد على شعيب مطعنا فى قوله أو نقصا فى سلوكه مع قومه ، ولكن خصوم الوحى أوبعبارةأخرى خصوم النبوة ، أوبعبارةأدق خصوم عصمةالأنبياءيلتمسون فى الصفحات البيضاء الناصعةنقطة سوداء أوكناء فلايجدونثم يحملقون بالمنظار المعظم فلايجدون الاقول اللهتعالىفىسورة الأعراف علىلسانقوم شعيب:« لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معكمن قريتنا أولتعودن فى ملتنا» ثم قول شعيب : « قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله » . فيريدون أن يقتحموا على شعيب حصن العصمة ويحاولون أنيقيموا لهم قاعدة ليقذفوا شعيبا بأنه كان على دين قومه قبل النبوة بدليل قولهم : « أو لتعـودن فى ملتنا » . وقوله : « قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها » . والأنبياء معصـومون قبل النبوة وبعدها على ما قدمنا فى أول مقال لنا من هذه السلسلة .

ولكنهم أضعف من أن ينالوا من هذا الحصن المنيع ، وتسقط قذائفهم على رءوسهم فانشعيبا يحدث عنقومه لاعن نفسه ولذا جاء الحديث بضمير الجمع فى كلامه وكلام قومه ، واذا نظرنا الى قول شعيب : « وما كان لنا أن نعود فيها الا أن يشـاء الله ربنا » . وجدنا أنه علق العودة الى ملتهم على مشيئة الله لهم العودة . والله لايرضى لعباده الكفر فهو تعليق على مستحيل وليس بعد هـذا الرد فى باب الاقناع وأدب الخطاب وقـوة الحجة مطمع لمستزيد . ألا ان الذين يشككون الناس فى عصمة الأنبياء انما يشككونهم فى الوحى ويشككونهم فى الله : « قل الحمد لله وسـلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون » .

جاد المولى سليمان

قال شيخى ؟ ! . . .

. . . وبعد أن اكتمل العقد ، واستوى المجلس ، نظر الأستاذ الشيخ الى تلميذه الفتى ، وقال :

ما لى — يا بنى — أراك مضطربا خائفا ، تنظر الى الحياة من خلال منظار أسود ، فترى نورها الساطع مظللا بالسواد ، وتشم أريجها انعطر ، من ثنايا أنف مزكوم ، وتحس مباهجها بقلب مفعم بالخوف من المستقبل . . ولست أدرى لم كل هذا ، لكأن القضاء والقدر لم يخلق الا لك وحدك ، ولكأن مفاجآت الدهر لا تنتظر الا اياك .

انى أراك — يا بنى — على حال يرثى لها ، فاذا غمرتك السعادة فى لحظة ما ، واهتز لها كيانك طربا ، سرعان ما يهفو عليك خاطر ، يكدر عليك صفوها . . فأنت لا تعرف كيف تستمتع بلحظة هانئة ، تنير لك أفق حياتك ، ويسبح فيها خيالك فى أجواء لا نهائية من الفرح والطمأنينة ، فتريح أعصابك المكدودة من عناء هموم قد ثقلت على كاهلك ، وناءت بها نفسك .. وذلك لأنك دائما تخشى المستقبل وتعتبر أن كل فرحة لابد وأن يعقبها حزن ، وأن كل ضحكة بريئة لابد وأن يتلوها بكاء .

لم ترهق نفسك هكذا ، يا بنى ، وقد خلق الله السعادة الى جانب الشقاء ، وخلق الفرح الى جانب الحزن ، وخلق دموع السرور الى جانب دموع الألم .. فكيف تتصور الحياة كلها كدرا وبؤسا وآلاما ، وتظن أن الزمان اذا صفا لك يوما فلابد أن يعقب ذلك أيام حالكة السواد ، واذا أعطاك شيئا فلابد أن يأخذ منك أضعاف ما أعطى ! ؟

ولكن دعنى أومن قليلا بفلسفتك هـذه التى أرهقت بها احساسك ، وآلمت بها ضميرك ، وجعلت بها حياتك سلسلة متصلة من المتاعب . . أظنك

لاتنكر أن هناك سعادة ، لأنك تحسها فى فترات ولو قصيرة من عمرك القصير . وأحسبك لاتجحد الفرح ، لأنه يغمر كيانك ، ولو خلسة ، فى بعض أوقات تركد فيها الآلام . . أليس كذلك ، يا بنى ! ؟

فلم لا تتشبث بلحظة السعادة ، وتحاول أن تحياها كلها ، ولا تترك فيها منفذا يتخلل لك منه الوهم الخبيث ، ويصورها لك على أنها خدعة ماكرة من خداع الزمن ستجرك بعد ذلك الى هم وحزن ، فينتابك القلق ، وتنقبض أسارير وجهك ، ويتسرب الكدر الى نفسك .. هل تظن أن الله خلق السعادة والشقاء بمقادير متساوية ، وأعطى كل فرد من عباده مقدارا متساويا من كل منهما ، بحيث لو فرح لحظة تحتم عليه أن يحزن لحظة أخرى تساويها أ أ ؟

ولنفرض أن ذلك هو الكائن ، فلم لا تنطلق فى لحظات السعادة ، وتترك النفس على سجيتها ، ولا تقلقها بالتفكير فى مستقبل محجوب لانعرف عنه شيئا . ولم نخاف من يوم لم يخلق بعد ، وقد يأتينا مزدهرا مملوءا بالأزهار والرياحين ، ولم نتوهم أن كل مايخبئه القدر لنا شر فى شر . أليس من الخير للفرد والمجتمع أن يحيا لحظة السعادة بكل جوارحه ، ويتجاوب معها، ويترك ما يخبئه القدر حتى يحين وقوعه ! ! ؟

ثم ان هناك ، مسألة أخرى ، يابنى ، هى ايمانك الأعمى بالحسد . . انى لاأنكر أن هناك حسدا ، ولكنى لاأتفق معك فى فهمك له،فأنت تحرم نفسك من الظهـور بأية حال جديدة ، وتخشى على نفسـك ، وعلى عائلتك ، من التحدث بأية نعمة أنعم الله بها عليكم ، وتخاف ـ وهذه هى المصيبة الكبرى ـ من الاقدام على أى عمل جديد ، كى تتقى نظرات العيون الحاسدة .

فتصور أنت حالة المجتمع اذا آمن أفراده جميعا ، بما تؤمن به أنت . هل يتقدم هذا المجتمع ، ويسير فى التطور الاجتماعى قدما نحو الأمام ؟ أعتقد أنك ستجيب بالنفى ، فان كل فرد ، سيخاف من حسد الناس له ان هو أقدم على مشروع ما ، ونجح هذا المشروع ، وبذلك يتعطل الرقى ، ويقف جامدا فى ميدان الحياة .

يا بنى . . .

ان ماتحيا فيه من أفكار ، نتيجة لميراث ضخم ورثناه عن أجيال سابقة ، أجيال عاشت فى جو الشرق الفسيح ، فلم تشعر بمـا فيه ، من جمال ، ولم تتذوق مابه من سحر ، ولم تتجاوب بما فيه من عذوبة ورقة ، بل طمست على عقولها أغلفة من الحجب والأوهام ، ورانت على قلوبها أحاسيس من الخوف من مستقبل مظلم ، لايعلم مداه الا الله .

أجيال عاشت،تحت تأثير تفسيرات خاطئة ، لمعانى واضحة كل الوضوح ، فخافت من مستقبل لم يخلق بعد ، وظلت ترقبه ، فى خوف وفزع ،وأقلقت نفسها فى البحث عن المجهول ، وفى تصويره تصويرا خاطئا ، ورسمت صورته فى شكل أسد جائع ناشب الأظفار .

أقبل على الحياة ، يا بنى ، ومتع نفسك بما فيها من مباهج ، مادمت تلتزم حد الاستقامة فى تخلقك ، واغتنم لحظات السعادة ، ودع نفسك ترتوى من مناهلها ، ولا تكدر صـفوك بأفكار خبيثة تتسرب الى وهمك ، فتجعلك كالنغمة النشاز فى لحن متسق . ولا تجعـل خوفك من الحســد يطغى على مشاعرك وأحاسيسك ، فتقعـد عن الاقدام ، فى زمن اتسم طابعه بالمخاطر والمغامرات ، وبذلك تتخلف عن مسايرة الركب فى دنيا التقدم .

وأمسك الأستاذ الشيخ عن الحديث ، وأطرق الى الأرض قليـلا . ومد يده الى مسبحته ، ليعبث بحباتها . ويتمتم بذكر الله ، فى صوت خفيض . ورفع التلميذ الفتى رأسه ، ليرى أستاذه الشيخ على هذه الحال ، فأدرك أن الدرس قد انتهى ، فهم على الفوريمسك بيد الأستاذ ، وينحنى عليها يحاول تقبيلها ، ولكن الأستاذ الشيخ أبى عليه ذلك ، وسحب يده من بين يديه ، وقال له : « لا يابنى ، ان هذا أيضا ، من عادات القرون الأولى » .

سعيد زايد

قضايا العالم الاسلامى

سبقت البرتغال الدول الى المحيط الهندى . وأرست مراكبها بشواطىء الهند فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر بقيادة هنرى الملاح وفاسكودم جاما . ثم تلتها الى هذه الشواطىء هولندا فاستقرت فى الخليج الفارسى ومصايد اللؤلؤ . ثم اقتحمت هذه الشواطىء بعد لأى فرنسا فاستقرت فى الهند حتى زاحمتها عليها انجلترا واستطاعت بعد قليل اجلاءها .

وفى عام ١٨٥٨ انقلبت شركة الهند الشرقية التى أسستها انجلترا فى الهند الى حكومة . وقبل هذا بقليل فى عام ١٧٩٨ تحرك نابليون من فرنسا يخوض البحر الأبيض حتى وصل الى مصر تملأ نفسه مطامع ضخمة وآمال واسعة فى أن يقيم امبراطورية فى الشرق .

وقد كان وصوله الى مصر سببا من أسباب تيقظ انجلترا الى موقع مصر الجغرافى وادعائها بأنها طريق المواصلات الى الهند .

كان موقع مصر الخطير موضع التقدير من أوربا حين تفتحت عينا الاستعمار على غزو الشرق خاصة لا سيما بعد أن أصبحت شركة الهند الشرقية سلطانا مسلحا فى الهند . فضلا عن أن مصر هى قلب الشرق الأوسط وزهرة الشرق أجمع . فلابد من أن ترنو اليها فرنسا وتهتم بها . وفرنسا بعد فجر نهضة نابليون وهى طامعة فى أن تزاحم انجلترا وتسابقها ، ولكن الروح المصرية القوية الممثلة فى يقظة الشعب بقيادة عمر مكرم كانت كافية رغم ضعفها فى العدد والآلات لأن تقاوم الفرنسيين وأن تزعجهم وأن تنغص عليهم أيامهم فلا يجدون بها استقرارا . الى أن قام الشعب بثورته الجائحة فى أكتوبر سنة ١٧٩٨ مما اضطر الفرنسيين الى التفكير فى العودة الى بلادهم وقد عادوا فعلا فى العام التالى ١٧٩٩ بعد أن هزم نابليون فى عكا .

والواقع أن هذا الزحف الفرنسى كان هو القارعة الأولى على أبواب الشرق الأوسط . وعن طريق مصر . ولقد لفت هذا الموضع الجغرافى الأنظار

فاتجهت اليه قوى المستعمرين . وسبق اليه نابليون . ثم بدأت انجلترا ترنو اليه فى رغبة الى احتلاله والسيطرة عليه . وهى التى آزرت تركيا على مقاومة نابليون وأرسلت من ورائه « نلسون » فحطم أسطوله . فعلت ذلك لا لترد عن تركيا ومصر عادية المغير وانما لتحفظ لنفسها الحق الأول فى السيطرة على مصر .

وقد ظلت نار التنافس الاستعمارى بين فرنسا وانجلترا طويلا حتى انتهت عام ١٩٠٤ حينما اتفق الاستعمار على تقسيم الغنيمة وابتلاع الوطن الاسلامى ، وفى الوقت الذى وقفت فيه فرنسا الى جوار محمد على كانت انجلترا تقف الى جوار الباب العالى وتؤازه . وقد عادت فرنسا فغدرت بمصر .

واشتدت هذه الخصومة عند ما اتفقت فرنسا مع مصر على حفر قناة السويس وعارضت بريطانيا فى حفرها أشد المعارضة . فلما أنشئت عملت انجلترا على شراء أسهمها سرا فى شبه مؤامرة ، وفى أزمة من أزمات الخديو وظل الخصام قائما بين انجلترا وفرنسا ، وازداد حدة بعد أن احتلت انجلترا مصر عام ١٨٨٢ ، اذ كان أسطولا انجلترا وفرنسا قائمين فى البحر الأبيض عند أزمة يناير سنة ١٨٨٢ . ثم آثر أسطول فرنسا العودة . وبعد أن كانت السيطرة المالية فى سياسة الديون ، والرقابة الثنائية ، وصندوق الدين تقوم عليها فرنسا وانجلترا أصبحت تحت سيطرة انجلترا وحدها مما استدعى بعدها وقوع حادث فاشودة الذى اضطر انجلترا لأن تعلن بأن هذه الأرض أرض مصرية .

وظل بعض زعماء الوطنية المصرية فى مصر يرى أن فرنسا تعطف على القضية المصرية حتى انكشف الأمر عن مؤامرة وفاق عام ١٩٠٤ حيث قبلت كل من فرنسا وانجلترا أن تطلق كل منهما يد الأخرى فى مصر وتونس . ومنذ ذلك اليوم زاد ضغط الاستعمار فى مصر حدة وقسوة فكان من آثاره البشعة حادث دنشواى .

وكل ما أريد أن استخلصه من القارعة الأولى أنها كشفت لأوربا ضعف الشرق عن مواجهة الحملة الغربية مما قوى مطامع انجلترا على التوغل فى الشرق .

والواقع أن تركيا العثمانية كانت أم المشكلة جميعها . فقد زحف الاستعمار والتغريب الى تركيا مبكرين أول ما زحفا الى الشرق . وكانت تركيا قد دخلت فى دور الضعف بعد أربعمائة عام من القوة الحربية . فقد أخذت تركيا تنطوى على نفسها حتى أفاقت أخيرا على واقع مؤلم لا يستطاع معه تدارك الصدع ، مما انتهى بالامبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى الى هذه النتيجة الخطيرة التى مزقتها تمزيقا . وكانت تركيا قد انضمت الى ألمانيا ، واتجه العرب نحو بريطانيا وحلفائها على أساس وعود مكتوبة ، فلما انتهت الحرب كانت بريطانيا قد خدعت العرب ـ اذ كانت فى نفس الوقت الذى تتعاقد معهم على أساس ما أطلق عليه محادثات الشريف حسين ـ مكماهون ، هذه المحادثات التى اتفق فيها على قيام الدولة العربية . كانت بريطانيا تقسم أسلاب هذه المنطقة بينها وبين فرنسا وروسيا بمعاهدة سكس باكو . وفى نفس الوقت صدر تصريح مشئوم أطلق عليه وعد بلفور الذى أعلن تأييد دولة الانتداب (بريطانيا) على فلسطين بالعمل على اقامة وطن قومى لليهود فى هذه المنطقة .

ومن ثم تبددت آمال العرب فى اقامة حكومة عربية فقد هاجمت فرنسا سوريا وهزمت قواتها فى معركة « ميسلوين » بعد أن كافح السوريون كفاحا مجيدا فى سبيل الثورة العربية التى قادها الشريف حسين سنة ١٩١٧ والتى استهدفت تحرير الوطن العربى من الاحتلال التركى ومعاونة الحلفاء على أساس اقامة الحكومة العربية المنشودة بعد الحرب ، واستولى الفرنسيون على لبنان وسوريا ، وبريطانيا على العراق وفلسطين ، كما أقامت امارة عمان . وكانت ايطاليا قد وضعت يدها على ليبيا منذ سنة ١٩١١ ، وما زال المغرب بأجزائه الثلاث : « تونس ومراكش والجزائر » فى يد فرنسا وجزء من مراكش تحت سيطرة أسبانيا .

ولكن الدول العربية لم تستسلم لهذا الواقع الأليم وسرعان ما اندلعت الثورات فى مصر ، وفى العراق ، وفى سوريا وفى فلسطين .

ولم يكن هناك من الأقطار الاسلامية بدون احتلال غير أفغانستان وايران وان كانتا مرتبطتين ببعض المواثيق مع الغرب .

أما تركيا فقد تحررت بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة من أعباء الامبراطورية ومن الخلافة ومن الحكم الشرقى ، وبدأت تتجه نحو الجمهورية والارتباط بالحضارة الغربية فى الكتابة من الشمال واستعمال القبعة وغيره من ضروب التغريب .

أما الحجاز فقد تولى أمره السعوديون بعد أن خلصوه من يد الأتراك .

بقى أن نتحدث عن الصراع بين الأتراك والانجليز ، ثم العرب والانجليز وذلك موعده الفصل القادم ان شاء الله .

أنور الجندى

(بقية المنشور على صفحة ٣٠)

لا تزال مستورة مخبوءة ، وما أجل الحق سبحانه حين وصف نفسه بأنه « رب العالمين » . . وكلما اتسعت البحوث والكشوف أظهرتنا على ضآلة علمنا وتواضع معارفنا بجوار ما هناك ، والحقائق دائما تبدى لنا بعض ظواهرها وخصائصها ، ولكن أسرارها ومكامنها تهرب من أيدينا وتفر ، وصدق القرآن : « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » . وقديما قال العلامة سقراط : « الشىء الذى لا أزال أعلمه جيدا هو أننى لا أعلم شيئا » !! . .

ولابد من رجعة يقوم بها العلم الى رحاب الدين والايمان يوما من الأيام ، وذلك يوم يستوى البحث العلمى على أمده وطريقه الواضح الحقيقى اليقينى ، ويوم يستقيم فهم الدين ، ويعتدل تفسير آياته وعرض تعاليمه ، ويومئذ يكون العلماء أول المؤمنين ، ويكون الدين خير رائد لأولئك المؤمنين . . ومن واجب علماء الدين وعلماء الحياة أن يعملوا على تقريب ذلك اليوم الآتى كيلا يطول بالحائرين انتظار . . .

أما بعد ، فانه لا حياة بلا دين ، كما أنه لادين بلا حياة ، والذين يريدون أن يقفوا فى وجه الدين بالحادهم أو سوء سعيهم لا يجنون الا على أنفسهم ، لأنهم يقفون فى وجه الطبيعة التى لا تتخلف ، والحق الذى لا يبيد . . . « فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم » ، « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . . .

أحمد الشرباصى

المدرس بالأزهر الشريف

ركن الأوقاف :

يحرره : توفيق مصطفى
عضو نقابة الصحفيين

(تحية طيبة ، يبعث بها « ركن الأوقاف » الى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها باستقبال شهر رمضان المعظم)

يصدر هذا الركن ، فى شهر رمضان المعظم ، شهر كريم ، فرضه الكريم لنصومه ، ولنطهر النفس من آثام شهور العام ، وما صدر من ابن آدم من أعمال سيئة ، بقصد كانت أو بغير قصد ، تحية لك أيها الشهر الكريم ، ومنك نستمد العون يا رب العالمين ، لتوفقنا لما فيه الخير ، وأن نعمل صالحا طوال هذا الشهر ، وانه لشهر كريم عند الله عظيم . .

***

ولوزارة الأوقاف ، فى مثل هذه المناسبة الطيبة سياسة رسمتها لنفسها ، ولن تحيد عنها ، ما بقيت الوزارة والمصلحون فيها ، وانهم لكثيرون . . سياسة ترمى الى التوسع فى أعمال البر ، واقامة الشعائر الدينية .. وأعمال البر وان كانت تجرى طوال العام ، الا أنها تتسع فى رمضان وتشمل مختلف الطبقات الفقيرة التى أخنى عليها الدهر . . ان هناك عشرات الأسر تأبى أن تجتاز باب وزارة الخيرات مهما ضاقت بها الحياة ، وكم ضاقت بها فعلا ، انها تفضل حياة الضيق والفقر المدقع عن أن تسأل الناس أعطوها أم منعوها.. والناس هنا ، هم الذين يصرون على أن يكشفوا ستر الأسر الكريمة ثم تلوك ألسنتهم بما وقفوا عليه من سر . . ولقد ناديت بأن يتحفظ الناس على هذه الأسرار ، وأن تسند الى الأمناء مهمة البحث عن هذه الأسر ، وأن لا يجعلوا من هذا البحث سلاحا كلما استبيح استعماله أغمد فى صدور هذه الأسر ، اننى ، لا زلت أكرر الرأفة بهذه الأسر ، فان ما سمعته أخيرا — عما صدر ازاء سيدة كريمة أرملة عالم جليل — يدفعنى الى التماس هذا الرجاء . .

ولفضيلة السيد الوزير رأى معروف فى هذه المساعدات ، أعجبنى منه قوله لمدير سابق لاقليم من أقاليم الجمهورية ، جاءه ذات يوم ليطلب أولوية المساعدة لمسجد الجمعية التى يعمل بها . فأجابه الوزير قائلا : ان الأولوية يا سيد انما تكون للبطون الخاوية ، انها تطالبنى بملئها لتعيش ، لهذه

البطون الأولوية اذن . . ان هناك أرامل لعلماء ماتوا ولم يخلفوا شيئا ، أريد أن أحفظ لهن ماء الوجوه . .وليذكر السيد أننى حريص على اقامة الشعائر الدينية فى بيوت الله أكثر من حرصى على نفسى وما أملك . .

بقى أن نعرف أن هذا المسجد تقام فيه الشعائر فعلا وصرفت له من قبل مبالغ متفاوته ! !

* * *

والحديث عن الشعائر ، حديث مشوق ، وقد قام أساتذتنا العلماء بالاستعداد الطيب لاستقبال هذا الشهر الكريم بأحلى ما يكون الاستقبال، وقررت لهم الوزارة ما يتطلبه هذا الشهر من عون أكيد ، لتبرهن هذا العام على مدى اهتمامها بالمساجد ، وفى رمضان خاصة .

* * *

وبيوت الله فى ازدياد ، والحمد لله ، وستقام فى كل محافظة ومديرية ومركز وبلدة وقرية فهناك مجموعة طيبة من المساجد ستقام هذا العام ، والعام الذى يليه . . ان قرارا هاما أعجبنى صدوره من السيد الوزير ، ولفت نظرى الى منطقة القنال ، والحديث عنها يطول ، لقد قضى هذا القرار بانشاء مسجد لمعسكر الجلاء فى مدينة الاسماعيلية ، على الأرض التى دنسها الاستعمار بآثامه ، طوال نيف وسبعين عاما من حياة البلاد .

* * *

وهناك قرار آخر أصدره السيد الوزير بأن يشتمل مبنى المسجد على جناح يضم عددا من المغاسل والحمامات الشعبية المجانية ، وسيبدأ تنفيذ ذلك فى مسجد مصر الجديدة هذا العام .

* * *

والسينما الثقافية . . لقد التبس على الناس فهم المقصود بها ، ان هناك فرقا كبيرا بين سينما اللهو والعبث ، وبين سينما الثقافة والدين ، فلا شك أن عرض القصة الدينية والموعظة الثقافية والاجتماعية على الشاشة أوقع فى بعض النفوس من النصيحة لو صدرت من شخص لآخر قلت مداركه . صحيح ان السينما عندنا اتجهت الى أفلام العاطفة الرخيصة ، واللهو الدنىء ان ما يقصده السيد الوزير هو أن يستعان بقاعة المحاضرات بكل مسجد فى عرض المسرحيات التى تنقل صورة حية عن البطولة العربية ، أو المصرية ،

أو الانسانية ، وعلى رأسها السيرة النبوية وسير الصحابة ، والتابعين ، وأبطال العرب والمسلمين فى شتى أطوار التاريخ ، هذا هو المراد — وليس ما عناه البعض — فالوزارة حريصة على تحقيق رسالتها .

***

والديانات الكبرى ، سيوضع عنها مؤلف لم يضعه مصرى من قبل ، فكاليفورنيا اتجهت مع مطلع شعبان الى مصر ، الى الأستاذ الباقورى نفسه، فقد اجتمع بمكتبه بالدكتورة لورا بولتوره الأستاذة بجامعة كاليفورنيا . . وتحدثت اليه فى أمر الاسلام والمسلمين ، وكم سعدت حين حصلت عليه من معلومات سيتضمنها البحث القيم الذى تعده عن (الديانات الكبرى) .

وتم بحمد الله افتتاح العيادة الطبية بالمدينة المنورة ، وقد ناب الأميرالاى الدكتور فتوح مدير عام الادارة الطبية عن السيد الوزير فى افتتاح العيادة ، وعما قريب سيتم افتتاح عيادة مكة المكرمة عند اقامة مبنى المبرة الجديد .

***

وللفقير على الدولة حق رعايته ، وقد أركت الوزارة هذا المعنى فكرمته بالعون فى كل وقت ، لكنها هذه المرة أضافت شيئا جديدا ، فقد ساهمت فى اصلاح حمامات حلوان الكبريتية بمبلغ كبير لتخفيض أجور العلاج فى أوقات محددة ، على أن يكون بالمجان للطبقات الفقيرة .

***

ومشروعات الانتاج تسير من حسن الى أحسن ، ولعل فى هذه العبارة — هذه المرة — الكفاية .

***

والصناعة . . التى اتجهت اليها البلاد فى عهد الثورة ، لفتت نظر رجال النقطة الرابعة ، بل رجال العالم اليها ، وللوزارة معهدان صناعيان كبيران ، أحدهما : المدرسة الجامعة للصناعات التى نفخر بها ، وبنظامها ، والثانى : المعهد الصناعى بطره ، وكان من قبل بروض الفرج ، وقد زاره خبيران من النقطة الرابعة وأعجبا بنظامه وأبديا رغبتهما فى مساعدة المعهد فى الأخذ بالنظام الآلى الحديث بدل النظام اليدوى .

واستصلاح الأراضى فى نمو وازدياد ، وقد تم الى الآن استصلاح ٢٢٠٠ فدان من الأراضى البور بالتل الكبير والحامول وشربين ، وقد زودت بالمساكن

المبسطة للفلاحين والمراوى والمصارف . . وبذلك تحرز الوزارة نصرا اثر نصر فى استصلاح الأراضى فى الانتاج ، ونرجو أن يلازمها النصر أيضا فى التصدير ، وفى تنمية موارد الوزارة .

والأرض المغتصبة . . والمليون جنيه . . قصة دامية ، ولكن دعونى أسأل: كيف تم اغتصابها ، وفى أى عهد ؟ . لقد اغتصب المغتصبون ٢٠ ألف متر على كورنيش النيل بمصر القديمة ، ان هيئة تحرير مصر القديمة لها الفضل فى اكتشاف هذا الاغتصاب ، وبقى على قسم قضايا الأوقاف أن يعيد للوزارة ما سبق أن اغتصب منها ، وعفا الله عن هؤلاء الذين يسروا لهؤلاء سبيل الاغتصاب ! !

والمساكن الشعبية . . وفيلات الموظفين . . نغمات عذبة ، فهل تتحقق ؟ أدعوا معى أن تتحقق ، فقد أعدت الوزارة مشروعا باقامة أحياء سكنية على مساحة ٣٠ ألف متر مربع ستراعى فيها حالة الطبقات المتوسطة .. ..

وفى حلوان ، والى جوار الحديقة اليابانية اقترح السيد على زاهر تقسيم ١٨ ألف متر وبيعها للراغبين بشرط تعميرها بالمساكن ، عدا اقامة عمارة سكنية على شارعى رياض وزكى . .

أما الفيلات ، فقيل لى انها فى القبة والمطرية ، ولكن كيف توزع وهل هناك مال يسمح بمواجهة طلبات راغبى الفيلات ؟ هذا ما سيحدد فى القريب .

والانتخاب .. انعام ١٩٥٦ عام الانتخاب والاستفتاء للدستور ، ولرياسة الجمهورية ، ولمجلس الأمة ، ولابد من اعداد كشوف بأسماء الناخبين . . وقد ساهم عشرون موظفا من الأوقاف ، مع زملائهم موظفى الدولة ، فى قيد أسماء الناخبين . . استعدادا لمعارك الجرية .

* * *

ان لدى عشرات المسائل ، بل المئات . . فماذا أتحدث ؟ وهل يكفى هذا النطاق الضيق لأن أتحدث عنها ، ان رئيس التحرير حدد لى حيزا لاأتخطاه ، فله ما أراد . .

. . أما أنا . . فلأنتظر الى العدد القادم ، مع مطلع العيد ان شاء الله .

والى اللقاء . . فى ركن الأوقاف المقبل . .

الفهرس

صفحة

إنى صائم : لفضيلة الأستاذ أحمد حسن الباقورى وزير الأوقاف ١

هداية القرآن : للسيد الأستاذ البهى الخولى ٥

هدى الرسول :

فضل الصيام وآدابه : لفضيلة الشيخ محمد عثمان على ٩

دفاع عن العقائد والمثل الإسلامية : لفضيلة الشيخ محمد محمد المدنى ١٢

أسرار الشريعة :

المعاول الهادمة أيضا : للسيد الأستاذ عبد الكريم الخطيب ١٨

الزواج المدنى وزواج المسلمة من الكتابى : لفضيلة الشيخ مصطفى الحديدى الطير ٢٣

هل الدين ضرورة : لفضيلة الشيخ أحمد الشرباصى ٢٧

أعلام الإسلام :

عبد الله بن الزبير : للسيد الأستاذ محمد رجب البيومى ٣١

جلال الدين السيوطى : للسيد الأستاذ حسن الشيخة ٣٨

طرائف :

من القديم : للأستاذ م . ج ٤٢

الخطابة :

الجهاد والمجاهدون : ٤٤

المنبر العام :

عصمة شعيب عليه السلام : لفضيلة الشيخ جاد المولى سليمان ٤٧

قال شيخى : للسيد الأستاذ سعيد زايد ٥٣

قضايا العالم الإسلامى : للسيد الأستاذ أنور الجندى ٥٦

ركن الأوقاف : للأستاذ توفيق مصطفى ٦٠

مطابع دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي